دُروسٌ مِنْ هَدْيِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ

سِلْسِلَةُ دُرُوسِ رَمَضَانَ

(ٱلدَّرْسُ ٱلثَّالِثُ وَالعُشرُونَ)

سُورَةُ المَائِدَةِ

مِنَ الآيَةِ ﴿٥٥﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ

أَلْقَاهَا ٱلسَّيِّد/ حُسَيْن بَدْرِ ٱلدِّين ٱلحُوثِي

بِتَارِيخ: ٢٣ رَمَضَانَ ١٤٢٤ هـ

المُوَافِق: ٢٠٠٣/١١/١٧ م

ٱلْيَمَن - صَعْدَة

هذه الدروس نُقِلَتْ من تسجيل لها في أشرطة كاسيت،
وقد أُلْقِيَتْ ممزوجة بمفردات وأساليب من اللهجة المحلية العامية.
وحرصاً منا على سهولة الاستفادة منها أخرجناها مكتوبة على هذا النحو.

إعداد/ يحيى قاسم أبو عَوَّاضَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

اللهم اهدنا وتقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

بعد أن جاء النهي المؤكَّد من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين: ألاّ يتخذوا اليهود والنصارى أولياء، وبعد أن أوضح خسارة من يسارعون فيهم، والسبب الذي يدفعهم إلى المسارعة أنه نتيجة مرض في قلوبهم، وبَيَّن ما يعطي أملاً للمؤمنين: أن الله سبحانه وتعالى سيستبدل بمن ارتدوا عن دينه، سيستبدل بهم غيرهم ممن وصفهم بأوصاف عظيمة، هذه الأوصاف العظيمة ليست بمعزل عن هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ﴾(المائدة:٥٥) بالإضافة إلى كونها توجيهاً للمؤمنين بشكل عام أنه لا يجوز أن تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ الذي يجب أن تتولوه فقط ﴿اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(المائدة:٥٥).

﴿وَلِيُّكُمُ﴾ الذي تعتصمون به، وتلجؤون إليه، وتستنصرون به ﴿اللّهُ﴾ سبحانه وتعالى هو من يجب أن تتولوه، وتكونوا معه، وتتبعوه، وتطيعوه ﴿وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ الآية هنا تُبيِّن بأن ولاية الله سبحانه وتعالى في هذه الأرض التي تتجلى على يد نبي من أنبيائه أو ولي من أوليائه إنما هي امتداد لولايته سبحانه وتعالى، امتداد لولايته، امتداد لسلطانه؛ لهذا جاءت بعبارة واحدة: ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ ولم تأتِ بعبارة الجمع فيقول مثلاً: أولياؤكم، ﴿وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأنها ولاية واحدة، ولاية رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) هي امتداد لولاية الله، ولاية الإمام علي هي امتداد لولاية رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) باعتبار الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ومِن بعده الإمام علي عليه السلام امتداداً لسلطان الله هنا في الأرض.

هذا يعطينا فهماً بالنسبة للولاية في الإسلام، عندما نقول: السلطة في الإسلام كيف هي؟ عندما تعود إلى القرآن الكريم ترى في سور كثيرة، في آيات كثيرة، وعندما تعود أيضاً إلى واقع الحياة، تتأمل في السموات والأرض وما بينهما من خلق الله تجد أن ولاية الله سبحانه وتعالى هي ولاية رحمة، ولاية رعاية، ولاية تربية، ليست مجرد سلطة هكذا، سلطة قاسية، أوامر ونواهي فقط، بل ولاية رحمة بكل ما تعنيه الكلمة. عندما تأتي إلى الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وتتعرف عليه من خلال القرآن الكريم ومن خلال ما نعلمه من سيرته (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) تجد أيضاً أنه كان يجسد هذه الولاية: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة:١٢٨). تأتي إلى ولاية الإمام علي نفس الشيء.

إذاً فهذا هو مفهوم الولاية في الإسلام، وهذه هي مهام الولاية في الإسلام، ليست فقط سلطة تنفيذية، سلطة أوامر ونواهٍ جافة، وتجبُّر، وتسلُّط، وقهر، وأشياء من هذه، أبداً؛ لأنها تحصل تساؤلات كثيرة فعلاً حول النظام السياسي في الإسلام، أو حول السلطة السياسية في الإسلام، وأشياء من هذه، هو أساساً السؤال من أصله غير صحيح؛ لأنه في واقع الناس ليس هناك فصل ما بين سياسة، واقتصاد، واجتماع، وثقافة، وتربية، ورعاية، وأشياء من هذه، ليس هناك فصل فيما بينها.

من أين جاء ترسيخ السلطة وكأنها فقط ما نسميها: سلطة سياسية فقط، سلطة تنفيذية لأوامر ونواهٍ وتسلط فقط؟! إنما جاءت عندما برز في الحياة هذه النوعية فعلاً، وعندما كان من يتزعمون البشر في مختلف مراحل التاريخ من النوعية التي لا تمتلك أيَّ رؤية أخرى، ولا قدرة أخرى فيما يتعلق بالرعاية، والتربية، والتثقيف وغيرها، لا يمتلكون شيئاً، لا يمتلك إلاّ القهر والسلطة: أمراً ونهياً وسجناً وقتلاً ونفياً ومصادرة، وأشياء من هذه، هذا عمل يستطيع أيُّ أحد أن يعمله، أليس أيُّ أحد يستطيع أن يعمله؟ لا يحتاج حتى إلى حنكة سياسية – كما يقولون – معاوية استطاع أن يحكم الأمة عشرين سنة، ومعاوية لم يكن يمثل شيئاً؛ لأنك بهذه الطريقة تستطيع أن تحكم العالم، هذا (بوش) نفسه أليس متجهاً إلى أن يحكم العالم؟ وهو عندما تتأمل منطقه، ملامحه، حركاته تجد أنه إنسان غير طبيعي، وغير متزن، لكن ما أيسر السلطة! وما أسهلها عندما تكون على هذا النحو: أوامر ونواهي! الذي يقول لك: (تمام، لا بأس) تعطيه كيفما أردتَ دون أن تلحظ حقوق الآخرين، والذي يرفض فسِجْن وقتل ونفي، وأشياء من هذه.

إذاً الولاية في الإسلام (السلطة في الإسلام) هي أرقى بكثير مما عليه واقع البشر، في مهام من يلي أمر الأمة تجد أنه عندما تتأمل ولاية الله سبحانه وتعالى لشؤون عباده فولاية من يلي أمر الأمة هي امتداد لولاية الله، يجب أن يكون عنده رحمة، يجب أن يكون عارفاً كيف يربِّي الأمة، يجب أن يكون عارفاً كيف يبني الأمة، كيف يطوِّر حياتها، كيف ينمِّي اقتصادها، كيف يزكي نفوسها، كيف يواجه أعداءها، أشياء واسعة جداً جداً.

تجد هذه ألم تكن هي أبرز الأشياء بالنسبة للرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) والإمام علي؟ ما الذي كان بارزاً بالنسبة لشخصيتهم كأولياء لأمر الأمة؟ هل كان البارز موضوع التسلط والقهر، أو هذا الجانب الآخر، جانب الرعاية والتعليم والتزكية ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(البقرة:١٢٩) جانب تربيتهم؛ ليَنشؤوا أمة على مستوى عالٍ؟ هذه المهمة هي التي كانت بارزة في شخصية الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) في ممارساته وسلوكه مع الناس الذين هو أولى بهم من أنفسهم ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾(الأحزاب:٦) ولهذا قال الله عنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّمْ﴾(التوبة:١٢٨) يعز عليه ويؤلمه أيُّ مشقة تلحقكم، هذه صفة هامة جداً ﴿عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أيُّ مشقة تلحقكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيكُم﴾ بكل ما تعنيه الكلمة، حريص عليكم بأن تَنشؤوا أمة مستقيمة، بأن تكونوا أمة قوية، بأن تَنشؤوا رجالاً حكماء، أصحاب نفوس زاكية، أصحاب نفوس عالية، حريص ألاّ يلحقكم أيُّ ضر مهما كان ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة:١٢٨).

إذاً عندما ترجع تتصفح القرآن الكريم بالنسبة لله سبحانه وتعالى أليس هذا ظاهراً، وليس فقط أن نقول ملموساً؟ هو ظاهر من خلال القرآن الكريم مظاهر رحمته، رأفته، رعايته، أنه فعلاً بالنسبة لعباده هم محط عناية كبيرة جداً تساوي ﴿حَرِيصٌ عَلَيكُم﴾ لا نمتلك عبارة بالنسبة لله تكون هكذا، لكن مثلما قرأنا في الآية السابقة ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ﴾(المائدة:٣٣) وكثير من الآيات غيرها، هذه الجوانب الهامة جداً هي الجوانب التي يحتاج إليها الناس، وهذه هي الجوانب التي لا يمكن أن يعملها أطرف الناس، أمَّا الجانب الآخر فبإمكان أيِّ شخص أن يفوز بانتخابات، أو بانقلاب عسكري، أو عن طريق وراثة، أو بأيِّ طريقة كانت فيصل إلى الحكم، ويمارس الحكم، ويبقى ولو أربعين سنة، ولكن هل تجد له أثراً في تربية الأمة، رعايتها، تنشئتها، بنائها بناءً صحيحاً؟ لا تجد إلاّ العكس.

إذاً فقبل أن نتساءل عمَّا هو النظام السياسي في الإسلام كنظام هيكلية الدولة، اسأل عن مهام الدولة في الإسلام، مهام السلطة في الإسلام ما هي؟ هي هذه، وليس فقط: هل هو شخص واحد، أو مؤسسات؟ هل عن طريق انتخابات، أو عن طريق اختيار، أو عن طريق شورى، أو، أو...إلخ؟ في المقدمة ما هي مهام الدولة في الإسلام؟

هل كان الإمام علي (عليه السلام) إنساناً ضعيفاً نفسياً؟ لم يكن ضعيفاً نفسياً على الإطلاق، بل كان قوياً، كان بإمكانه أن يُخضِع أهل العراق، ويُخضِع هذه الجزيرة، ويُخضِع كل البلاد الإسلامية، ويدير الأمور بشكل أقسى مما عمل معاوية، ألم يكن يستطيع أن يعمل هذه؟ لكن اقرأ ما الذي ترك معاوية، وما الذي ترك الإمام علي، عندما تقرأ في (نهج البلاغة) تجد كيف ترك حتى فيما يتعلق بـ(الوعي السياسي) للناس، ترك تراثاً هاماً جداً، مثل عهده إلى (مالك الأشتر) تجد نصوص خطبه وتوجيهاته - مع أنه قد يكون قليلاً فقط ما وصل إلينا في نهج البلاغة - كيف هو فعلاً عمل الإنسان الذي يفهم السلطة في الإسلام ما هي، يفهم الدِّين من حيث هو بالنسبة للإنسان ما هو دوره، أن الله كرم الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠).

فيجب أن يكون الحكم للناس بالشكل الذي يَسْمو بهم، يكون متناسباً مع تكريم الله لهم، وليس بالشكل الذي يحطهم، ويقهرهم، ويُذل نفسياتهم؛ ولهذا أصبح جانب كبير من المسؤولية على نفس الأمة، على الناس أنفسهم؛ لأن القضية هنا إضافة إلى خبرة إدارية، وقدرة تربوية، وتوجيهية بالنسبة لمن يلي أمرها لا بُد بالنسبة لها هي أن يكون لديها وعي، هو أن تعرف بأن من الأفضل لك أن تعيش في سلطة فيها مثل الإمام علي (عليه السلام) لا تخاف أنه يمكن أن يظلمك، لا تخاف أنه بمجرد وشاية مُعيَّنة إليه يمكن أن يسجنك، أو يقتلك، لا تخاف أن جواسيسه وراءك أينما ذهبتَ، لا تلمس أيَّ خوف في نفسك، ولا أيَّ شعور بقهر وإذلال ممن يحكمك، أليس هذا هو الذي يتناسب مع كرامة الإنسان؟

ويجب أن تكون فاهماً أن على الإنسان نفسه أن يكون واعياً وفاهماً؛ لأن نصف الموضوع فعلاً يتوقف على الناس؛ ولهذا كان الإمام علي والرسول من قبله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يوجهون الناس على أساس أن يفهموا هم، أن ينطلقوا هم، أن يتحركوا هم، ألاّ يرضوا لأنفسهم أن يكونوا من النوعية التي لا تتحرك إلاّ إذا سيقت بالعصا، لا تتأدب إلاّ إذا ضُربت بالأسواط.

الإمام علي (عليه السلام) تعب جداً في هذا الموضوع وكان باستطاعته أن يمارس السلطة بل أيُّ واحد من جماعته وليس هو باستطاعته أن يمارس السلطة بأرقى مما عمل معاوية، لكن معاوية ما الذي ترك؟ ما الذي سمعنا عن سلطته عن إدارته لشؤون الأمة؟ وماذا عمل؟ سمعنا بقهر، بإذلال، بتدمير، بسفك للدماء، بتضليل رهيب للأمة، تحريف لقيم الدِّين، إذلال للأمة، ومن أخطر الأشياء على الأمة أن تُذل بواسطة من يحكمها، لكن الأمة إذا لم

تكن واعية فعلاً، تكون هي التي تُعبِّر عن نفسها بأنها ليست جديرة إلاّ بمن يسوقها بالعصا، ويذلها ويقهرها.

الإمام علي عليه السلام أوكل المسألة إلى الواقع بعد أن فهمهم، ووضح لهم، وبَيَّن لهم، ووجههم، وحذرهم من العواقب، فلم يقبلوا، ولم يرضوا أن يتحركوا ويتفاعلوا بالشكل المطلوب، ذاقوا العاقبة من بعد، ألم يذوقوا الأمرَّين عندما تسلط عليهم بنو أمية من بعد؟ معاوية ومن بعده يزيد ومن بعده بنو أمية واحداً تلو الآخر.

هذه الأمة مسؤوليتها كبيرة، الهدى الذي قُدِّم إليها مهمته بالنسبة لبناء النفسية مهمة عالية جداً، يصل بالنفس إلى مستوى عالٍ جداً، مهمتها في حركة هذا الدِّين لإيصاله إلى الأمم الأخرى، تحتاج إلى أن تربَّى على هذا النوع: تحمل نفوساً كبيرة، نفوساً كريمة، نفوساً عزيزة، نفوساً أبية، لا يكون قد أذلها وحطها القهر، قهر التسلط. لاحِظ الآن عندما حكم العربَ الكثيرُ من حكامهم بسياسة القهر والتسلط، أنت هنا ضربت الأمة، لم تعد هذه الأمة صالحة لأن تدافع عن نفسها، ألفت القهر، ألفت الإذلال، ضعفت نفوسها، انهارت معنوياتها؛ لهذا يكون هناك أثر سيئ جداً جداً للتسلط على الناس؛ لأنه يؤدي إلى قهر أنفسهم فيضعفون في مواجهة العدو، ويضعفون عن حمل هذه الرسالة العظيمة التي أوكِلت إليهم.

هذه القضية من أهم الأشياء، حتى نعرف هل للإسلام رؤية سياسية كما يقولون؟ هل الإسلام فيه ولاية أمر أو ليس فيه شيء؟ كيف نظرة الإسلام إلى هذه القضايا التي يتكالب عليها الناس ويتسابق عليها الانتهازيون؟ لا يمكن أن تفهم القضية إلاّ أن تبدأ من عند الله سبحانه وتعالى فتعرف وهو يقول عن نفسه بأنه الملك، ألم يقل بأنه الملك؟ انظر إلى كيف ملكه هو؟ هل هو ملك تسلط وقهر وجبروت، أو مُلْك رعاية وتربية؟ وفي الأخير - فعلاً - لمن لا ينفع معهم أيُّ شيء يَضرِبهم، أليس هذا الذي نلمسه في القرآن بالنسبة لله سبحانه وتعالى؟

انظر إلى ولاية الله سبحانه وتعالى لأمر عباده، واعرف أن ولايته هنا عن طريق رسوله، أو الذين آمنوا، إنما هي امتداد لولايته، ويجب إذا لم تكن على هذا النحو فليست امتداداً لولايته، إذا لم يكن من يلي أمر الأمة يتعامل مع الناس بالشكل الذي يلمسه من خلال مظاهر مُلْك الله، مظاهر ولاية الله سبحانه وتعالى على عباده، معنى هذا ماذا؟ أنه لا يُعتبَر امتداداً لولاية الله أبداً، بل هو مفصول عن الله، وسيترك آثاراً سيئة في نفوس الناس، وفي واقع الحياة.

حصل الخطأ الكبير حتى عندنا نحن الزيدية، ما بالك بالآخرين الذين جعلوها جائزة، مَن قفز على كتف وعلى كاهل هذه الأمة تجب طاعته وإن قصم ظهرها، وإن لعب بأموالها، وإن داسها، تجب طاعته! أيضاً قدَّموا لديهم هذه الفكرة: ما هي ولاية الأمر؟ قالوا في الأخير هي: (رئاسة عامة) يُجيِّش جيوشاً، ويُعيِّن ولاة، ويعزل ولاة، ويقيم حدوداً، ويستلم زكاة، وانتهى الموضوع.

القضية أوسع من هذا بكثير، وإذا لم نفهم المسألة على هذا النحو فمعنى هذا أننا جاهلون بالله فعلاً، وجاهلون بمثل هذه الآية نفسها ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ وليكم، أليست بعبارة مفردة؟ ﴿اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالتأكيد أن ولاية رسوله وولاية الذين آمنوا - الذي هو الإمام علي ومن كان كمثل الإمام علي - تُعتبَر امتداداً لولاية الله، هنا ستعرف أهمية ولاية الأمر في الإسلام بالنسبة للأمة، وأهميتها بالنسبة للدِّين، وأهميتها بالنسبة لإقامة الدِّين، ليست القضية هل يجوز أن يكون من هؤلاء، أو هل يجوز أن يكون بشورى، أو يكون بانتخابات، أو أن يقفز بانقلاب عسكري، أو بأيِّ طريقة كانت، ليست القضية حول هذا، هل يكون واحداً، أو عشرة، أو عشرين أو... إن الإسلام لديه رؤية - إذا صحت العبارة - أن يحكم الأمة بكلها، البشر بكلهم، قدَّم رؤية هي أرقى رؤية لحكم العالَم بكله ناهيك عن إقليم من الأقاليم.

عندما يقول البعض: أبو بكر ماذا يوجَد فيه مِن عيب؟ أليس البعض يقول هكذا: (هذا أبو بكر سيَّر جيشاً إلى الشام وقاتلوا أعداء الإسلام) وأشياء من هذه؟ هذه كلها تكون نتيجة قصور في فهم ولاية الأمر في الإسلام ما هي - بالنسبة للأمة، وبالنسبة للدِّين بكله - ما هي؟ تراها قضية واسعة جداً جداً، لا يستطيع مثل أبي بكر، ولا مثل عُمر، ولا مثل عثمان أن ينجح فيها على الإطلاق لا يستطيع حتى وإن حاول أن يُخلِص، ليست قضية تعود إلى أنه مخلص أو غير مخلص، وإن أخلص، وقد أوضح الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم للناس وضرب مثلاً يُبيِّن للناس بأن هؤلاء غير جديرين بقيادة الأمة عندما ولاهم في خيبر، أعطى الراية في يوم من الأيام أبا بكر فرجع منهزماً أمام اليهود، أعطى الراية عُمر فرجع منهزماً أيضاً من جديد أمام اليهود.

ثم تعود إلى هذا الدِّين وإذا هو يعطي هذه الأمة مهمة عالمية وكبيرة جداً جداً، حركة جهاد في العالم، إيصال هذا الدِّين إلى كل أنحاء العالم، أليس هذا بالتأكيد يتطلب قيادة عالية؟ فالذي انهزم أمام اليهود، ناهيك عن

أن تكون قبيلة عربية، ربما لو كانت قبيلة عربية لكان الأمر أهون؛ لأن القبائل العربية أقوياء، لكن اليهود هم أذلة وانهزم أمامهم؛ هذا يعطي مؤشراً واضحاً بأن مثل هذا ليس جديراً بقيادة أمة مجاهدة، وتُربَّى على أساس أن تكون مجاهدة، وتحمل هذه الرسالة إلى العالم كله. نحن نَعتبِر أن الدِّين تراجع وتراجعت الأمة تراجعاً كبيراً جداً جداً من أيام أبي بكر إلى الآن.

لكن إذا كنتَ فاهماً فقط أن ولاية الأمر تعني "واحد يرتكز"[1] يُجيِّش جيوشاً فأيُّ واحد يستطيع أن يُجيِّش جيوشاً، ويُعيِّن محافظين، ويزيل محافظين، أو أمراء، أو ولاة، على حسب منطق السلطة في أيِّ زمن كان، أليس باستطاعة أيِّ واحد؟ وباستطاعة أيِّ واحد أن يقسم الأموال لهذا، وهذا، وهذا، باستطاعة أيِّ واحد أن يحاول أن يسترضي كبار العشائر يعطيهم أموالاً كبيرة، والباقون في ستين داهية، أليس باستطاعة أيِّ واحد أن يعمل هذه؟ أليست هذه مظاهر تتنافى مع ولاية الله؟ إذاً فبالتأكيد أن قضية الولاية ليست قضية نختلف فقط حول: هل واحد أو اثنان أو أن يكون واحداً فقط، أو يكون هناك مؤسسات، أو تكون الطريقة هكذا، أو تكون الطريقة هكذا، حول ما يسمى نظاماً أو هيكلية، بل حول المهام ما هي أولاً.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾(المائدة:٥٥) في كثير من المواضع يأتي بالكلام عن الصلاة والزكاة وكأنهما نموذج للمجالين الرئيسين في العبادة - مثلما يقولون - عبادة روحية، وعبادة بدنية (مالية). هذه الآية المشهور فيها أنها نزلت في الإمام علي عليه السلام عندما تَصدَّق بخاتمه وهو راكع، ومثلما قلنا في درس سابق[2]: إن هذا فعلًا يعطي مؤشراً هاماً جداً، الإمام علي عليه السلام عندما دخل فقير يسأل ولم يعطه أحد أشار إليه بخاتمه ليأخذه.

أليست قضية الخاتم تبدو قضية بسيطة؟ لكن ماذا تدل عليه؟ تدل على نفسية أخرى، نفسية تهتم بالناس، أليس هذا مؤشراً كبيراً؟ نفسية رحيمة، ونفسية تهتم بالناس، وليس يهتم كيف يأخذ حق الناس، بل يهتم بالناس، فأعطاه الخاتم، معناه: أن الأمة إذا لم تكن على هذا النحو: تتولى الله ورسوله وتتولى الذين آمنوا فستنهار، وفعلاً قد تصبح فيما بين واحد من اثنين: إمَّا أن تكون متولية لليهود والنصارى، أو متولية للذين آمنوا، فعلاً إن المسألة تصل إلى هذا، أي: لا تلحظ في كثير مما يُقدَّم في القرآن في أجواء تبدو وكأنها أجواء مقارنة إلاّ ومعنى هذا أنه إذا حصل تقصير هنا فسيكون الطرف الآخر هو البديل، إذا حصل تقصير في تولينا لله ورسوله والذين آمنوا فسيكون اليهود والنصارى هم البديل، أليس هذا واقعاً الآن؟ هو واقع.

هذه الآية هي نزلت في الإمام علي عليه السلام فعلاً، وقلنا في درس سابق[3]: بأن الآية هي نفسها تشهد وتدل على أنها نزلت في قضية خاصة، بداية نزولها من قوله: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ لا يمكن أن نُفسِّر ﴿رَاكِعُونَ﴾ بمعنى: مصلون، إذ كيف يمكن يقيمون الصلاة وهم مصلون، ويؤتون الزكاة وهم مصلون؟! هذا لا يصح في التعبير الطبيعي ناهيك عن القرآن الذي أحكِمت آياته، ولم يأتِ فيما نعرف كلمة ﴿رَاكِعُونَ﴾ بمعنى: خاضعون، بل يأتي بكلمة (ساجدين، أو قانتين) هذا الذي نعرفه من خلال القرآن، فالآية نفسها هي فعلاً تدل على أنها نزلت في قضية، في واقعة خاصة، لشخص خاص، في بداية نزولها، ولا تزال، ولنعرف مثلاً لماذا تأتي مثل هذه الآية في سياق الحديث عن بني إسرائيل، ويظهر من خلال الواقع: أن الأمة بحاجة إلى تولي الله ورسوله وتولي المؤمنين في المقدمة الإمام علي عليه السلام من بعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؟

إن هذه القضية لا بُد منها حتى تهتدي بالقرآن، وحتى تكون بعيدة جداً عن أيِّ حالة قد تكون بها قريبة من تولي اليهود والنصارى، وحتى تكون بشكل أخير على مستوى عالٍ، تُعتبَر حزب الله، وحزب الله كما قال في آخر الآية إنهم ﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ لأن الإمام علياً، وهذا هو منطق الإمام الهادي عليه السلام هو يعتقد أن ولاية الإمام علي هي قضية واجبة على المسلمين، قد تكون قضية مختصة بالإمام علي أساساً، قد يكون بعده أئمة متأخرون قد لا تكون تعرفهم، قد لا تكون مسؤولاً أمام الله بأنك لماذا لم تعرفهم، وتتولاهم بالتحديد، الإنسان يتولى المؤمنين بشكل عام، يتولى أولياء الله بشكل عام، ويدين الله بولايته لأوليائه وحبه لأوليائه، لكن الإمام علياً هنا يشكّل ضمانة، ويشكّل نموذجاً، قُدِّم كنموذج لكيف يجب أن تكون ولاية الأمة من بعد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى نهاية التاريخ.

---

(١) يَرْتَكِز: من اللهجة العامية، والمقصود بها في هذا السياق: يتولى المنصب.

(٢) الدرس الثاني، آيات من سورة المائدة.

(٣) الدرس الثاني، آيات من سورة المائدة.

الإمام علي نفسه قُدِّم لهذه الأمة نموذجاً فمن يكون متولياً للإمام علي فعلاً سيرى ولاية الأمر في الإسلام أن من يلي أمر الأمة يجب أن يتحلى بقيم، بروحية شبيهة بما لدى الإمام علي، أليس هذا حاصلاً لدى الشيعة؟ ألم تبقَ عند الشيعة هذه الرؤية؟ بقيت هذه الرؤية عند الشيعة لماذا؟ لأنهم متولون للإمام علي، من يكون متولياً للإمام علي يكون في نفس الوقت يدين ويعتقد - لأن هذا معنى ولايته - أن هذا الدِّين لم يترك القضية فراغاً ولم يتناول موضوع ولاية أمر الأمة، أن الإمام علياً هو أول شخص من بعد رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) عيَّنه الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يعني ماذا؟ أنك تدين بأنه ليس هناك فراغ على الإطلاق، وأن رسول الله مات وترك الأمة هكذا تبحث لها لمن ترى، أو من قفز فوق كاهلها فـ(حيَّاه الله).

تتجلى الصفات المعاكسة الآن، أليست تتجلى في واقع الأمة الآن عند من يلي أمر هذه الأمة؟ وعلى الرغم من أهمية هذا الزمن، وكثرة الإمكانيات فيه، والوسائل التي كانت تؤهلهم لأن يبنوا الأمة، لو كان هناك رحمة، وهناك رعاية، وهناك حرص، وهناك من هذه المواصفات العالية، أليس واقع الأمة سيكون بشكل يختلف عمَّا هي عليه الآن؟ إذاً ما الذي فقدت الأمة في من يلُون أمرها الآن على اختلاف بلدانهم؟ ما الذي فقدته؟ ألم تفقد صفات في هؤلاء؟ ألم تفقد صفات هي مرتبطة بهذه الأمة، مرتبطة بهذا الدِّين؟ هذه هي التي فقدتها، لَمَّا كانوا فاقدين لها، فقدتها الأمة، أصبحت الأمة في وضعية سيئة جداً، أليس هذا الذي هو معروف الآن؟

كما قلنا سابقاً بالنسبة لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ...﴾(المائدة:٥٤) إلى آخر الآية، ألم يأتِ بصفات في هؤلاء، ثم يأتِ بعدها: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ﴾(المائدة:٥٥)؟ بالتأكيد يجب أن يكون هؤلاء متولين لله ورسوله وللذين آمنوا والإمام علي في مقدمة الذين آمنوا بعد رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) قضية أساسية، وإلاّ فلن يهتدوا بالقرآن، ولن يحملوا تلك المقومات، والصفات الهامة. ولاحِظوا أن القضايا كلها عملية في الإسلام، والولاية ليست فقط أن تحب له كما تحب لنفسك، وتكره له كما تكره لها، بل يجب على الأمة أن تتولى، المؤمنون يجب أن يتولوا الله ورسوله والذين آمنوا؛ لأن مهمتهم كبيرة، والخطورة عليهم كبيرة، متى ما تولوا الله ورسوله والذين آمنوا أصبحوا حزب الله؛ ولهذا قال بعد: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(المائدة:٥٦) أي: فهؤلاء سيكونون (حزب الله) وحزب الله هو الغالب لا شك في ذلك.

أليس هذا يعني: بأنها قضية ضرورية بالنسبة للناس، بأن يكونوا غالبين في مواجهة هذا العدو الذي يشكّل خطورة كبيرة عليهم؟ أليس الناس كلهم بحاجة إلى مثل هذه الآيات؟ هم الآن في حاجة إلى من ينقذهم من هذا العدو ناهيك عن أن يَغلبوا، كل العرب الآن حكوماتهم وشعوبهم، وهذه الأمة كلها (المسلمون) بحاجة الآن إلى مَن ينقذهم من أمريكا، تبقى مكانها، وهم يبقون مكانهم! بينما هنا تجد في القرآن الكريم أنه يُقدِّم ما يجعلهم إلى درجة أن يكونوا غالبين لهؤلاء الأعداء، إذاً أليست تُعتبَر خسارة كبيرة: ألاّ يعودوا إلى القرآن الكريم، وألاّ يكونوا على ما يهدي إليه؟!

عندما يتساءل البعض: لماذا لم يذكر علياً؟! أليس البعض يقول هكذا؟ لماذا لم يذكره باسمه؟ القضية ليست بهذا الشكل، إن القرآن يُقدِّم أسساً، مبادئ، مقاييس، مواصفات هي فوق مجرد اسم، عندما يكون هذا الدِّين هو لهذه الحياة إلى آخر أيام الدنيا فهل معناه أنه لا بُد أن يُقدِّم قائمة بالأسماء: فلان بن فلان، وفلان بن فلان...إلخ؟ ثم لا تدري إلاّ وكل واحد يسمي ابنه بذلك الاسم، ألم يحصل هذا عندما يقولون: إن المهدي سيكون اسمه: محمد بن عبد الله؟ جاء الكثير ليسموا أولادهم محمد بن عبد الله على أساس ربما يكون المهدي، وهكذا.

إن القضية الأساسية هي: أن يُبيِّن كيف يجب أن يكون من يلي أمر الأمة، ثم إن المسألة هي أعلى من مجرد أن يكون اسمه فلان أو فلان، هذه قضية مرتبطة بالله هو الذي يختار ويصطفي ويؤهل هو، لا يعطي قائمة مُعيَّنة من الأسماء، القضية هنا وفق رؤية القرآن متميزة أدق من الاسم فعلاً، أمَّا الاسم فممكن أن يُقدِّموا لك عشرات الأسماء، وكل واحد يدَّعي بأنه هو (فلان) يُقدِّم لك قائمة: فلان بن فلان، وفلان بن فلان، ألم تحصل ادعاءات للمهدوية على طول هذا التاريخ؟ من جاء واسمه محمد بن عبد الله قال: (المهدي) وهكذا، وتكون الأمة منتظرة للاسم، منتظرين أن يكون اسمه هكذا، فيكون هذا متحركاً بهذا الاسم، وذلك من هناك متحركاً بهذا الاسم، قال ذلك: (إنه هو المهدي) وذلك قال: (لا، بل أنا) قال: (أنا اسمي محمد بن عبد الله) قال ذلك: (وأنا اسمي محمد بن عبد الله) أو أحمد عبد الله. أحمد، أو محمد كما يقولون!

لا، المسألة قدِّمت بأدق من التسمية (مبدأ التكامل) وأن القضية مرتبطة بأن تعرف الله في المقدمة، تعرفه هو سبحانه وتعالى، ثم تعرف كيف ولايته التي هي عن طريق واحد ممن يصطفيهم من أنبيائه، ورسله، أو مِن أوليائه، كيف ستكون ولايته، وكيف يجب أن تكون ولايتهم، أنها امتداد لولايته، ثم تجد في القرآن تشخيصاً أدق من الاسم، هذه القضية تُقدَّم للأمة كتثقيف، تُثقَّف بالرؤية القرآنية، وستميِّز المسألة بأدق من التسمية؛ ولهذا نحن نقول: غير صحيح عندما يقول الاثنا عشرية: واحد فلان ابن فلان، وواحد فلان ابن فلان، قدَّموهم تسلسُلاً، انتهى عليهم التسلسُل في نصف القرن الثالث إلى (مائتين وخمسة وخمسين هجرية) في الأخير يقعون في مشكلة إلى الآن على مدى أكثر من ألف ومائة سنة.

أن يذكر الاسم - مثلاً - أليس الناس سيكونون منتظرين للاسم، وسيحصل تزييف عن طريق الأسماء؟ لكن هنا في القرآن قُدِّمت المسألة في ما يتعلق بولاية الأمر، وفي مَن هم الذين يمكن أن يَخلُفوا رسول الله في أمته، قُدِّمت بالشكل الذي لا يحصل التباس فيها على الإطلاق، ولا يحصل اختلاف؛ ولهذا كان الإمام الهادي يقول: (لن يَشتبه في ذلك اثنان)[1] نهائياً، عندما قالوا: (فإن كان ذلك عالِماً، وهذا عالِماً، وهذا كذا) في الأخير قال: (هذه مجاراة وإلاّ لن يلتبس اثنان في المسألة) لكن يكون تميُّزاً واضحاً، اختياراً إلهياً، اصطفاءً إلهياً، وليست مسألة تأهيلية: كل واحد حسب رأيه: بالاسم، أو بالتأهيل، أو بشهادة جامعية، أو بشهادة (أزهر) وأشياء من هذه، فيكونون متنافسين على من الأعلم، من الأورع، من الأزهد، من الأكبر، من الأصغر، وهكذا.

لاحِظ كيف ضُرِب مثل لبني إسرائيل أنفسهم، ومثل للأمة كلها، أليس عيسى بن مريم عليه السلام بعدما ولدته أمه ذهبت به إلى قومها طفلاً بين يديها؟ طفلاً، والكنائس مليئة بالحاخامات منهم، وربما كل واحد منهم يظن أنه لو نزل وحي من السماء لَمَا نزل إلاّ عليه، والثاني مثله، وهكذا، يأتي طفل تقدِّمه أمه: أن هذا هو الذي سيكون رسولاً وينتظرون حتى يكلم الناس كهلاً، كلمهم في المهد بقي طفلاً إلى أن أصبح شاباً، ثم أوحي إليه بتبليغ الرسالة والنهوض بالرسالة.

ومع هذا وتطبيقاً لمثل هذه الآية والآية التي ستأتي بعد، ألم يعلن بالاسم؟ وهل أفادهم الاسم بعد أن أعلنه يوم الغدير ((فهذا علي مولاه))؟ ألم يقل هكذا صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ((فمن كنت مولاه فهذا)) بالإشارة، أليس تعييناً وهو ممسك بيده؟ ((علي)) ألم يذكره باسمه؟ ((مولاه)) وفي الأخير يضعون بدلاً عنه واحداً اسمه أبو بكر! ألم يضعوا شخصاً آخر باسم آخر؟ لأنهم لو فهموا المسألة بالشكل المطلوب، لو كانوا يتفهمون فعلاً، ولذلك نقول: التفهم زيادة على مجرد قضية الإيمان، ويجب أن نفهم هذه ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا**﴾(النساء:١٣٦) أليس هذا إيماناً داخل إيمان؟ لو كانوا متفهمين بالشكل المطلوب للمسألة بكلها، ولو عرفوا مسؤوليتهم في الالتزام أمام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لَمَا قبلوا غير علي على الإطلاق؛ لأن مواصفاته واضحة، كماله معروف، وبالتعيين أيضاً. فعندما يقول لك: لماذا لم يذكره هنا في القرآن؟ ذكره بأدق من الاسم، ثم انظر أنت هل نفع الاسم معهم؟! إذا لم ينفع الاسم مع أولئك الذين كانوا تلاميذ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم هل سينفع الاسم مَن بعدهم؟

ولأن القضية هي بيد الله - كما قلنا أكثر من مرة - أن موضوع إقامة دين الله، موضوع قيادة الأمة وتربيتها لتكون على مستوى عالٍ في النهوض بمسؤوليتها، أنها قضية تختص بالله، وأنها القضية التي لا يمكن للناس أن يختلفوا فيها إذا فهموها؛ لأن بقاءها بيد الله يشكل ضمانة للأمة، تبعدهم عن التزييف، تبعدهم عن الادعاءات الكثيرة، تبعدهم عن التضليل، تبعدهم عن القهر والتسلط والإذلال، تبقى القضية بيد الله، وهذه هي سُنة الله، أنه هو الذي يصطفي ويختار ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**﴾(القصص:٦٨) ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾(فاطر:٣٢).

ولاحِظ هنا في القرآن الكريم، أليس يُقدِّم موضوع (ولاية الأمر) قضية تتركز بشكل أساسي على موضوع الكتاب، على موضوع الهداية، والتربية، وبناء الأمة؟ ليست الأشياء التي يسمونها الآن سلطة تنفيذية إلاّ جوانب قد تكون ربما لا تمثل إلاّ عشرة في المائة، قد لا تمثل فعلاً باعتبارها تنفيذية إلاّ عشرة في المائة من مهام ولاية الأمر في الإسلام، وأن هذا الجانب هو الجانب الذي سيُخفق فيه أيُّ شخص ليس ممن اختاره الله كائناً من كان، سواءً من داخل أهل البيت أو من خارجهم، سيخفق فيه، الجانب الآخر هذا مهما كان، أمَّا الجانب

(١) انظر: كتاب الأحكام ٢/٤٦٣.

الثاني: السلطة التنفيذية فيمكن أيِّ واحد أن "يدّيوَل" لكن في الأخير انظر كيف آثار هذه "الدَّيوَلة"[١] في تاريخ الأمة من ذلك الزمن إلى الآن، كيف أصبحت هذه الأمة؟!

مثلما قلنا في درس سابق ربما قد يكون من أول الدروس في الموضوع، أعتقد في (يوم القدس العالمي) بأن القرآن - فعلاً - يُقدِّم القضية بالنسبة لهذه الأمة أمام أعدائها، أمام هذا الخطر الكبير الذي يدهمها الآن أن لا مخرج لها على الإطلاق إلاّ العودة إلى هذا القرآن، إلى هذه الآيات: التولي لله ورسوله والذين آمنوا، وفي مقدمة المؤمنين علي بن أبي طالب، قضية أساسية.

في الأخير قدِّمت ولاية الأمر بشكل آخر فلم تعد تعني إلاّ السلطة التنفيذية، حتى أصبحت المسألة بأنه إذاً لم يعد معناها إلاّ ما يسمونه احتكاراً، أو استبداداً، أو بأيِّ عبارة، عندما قدِّمت ولاية الأمر بالشكل الذي يمكن أن يكون من أهل البيت أو من غير أهل البيت، ألم تُقدَّم هكذا؟ وإذا لم يبرز موضوع أن يكون من أهل البيت إلاَّ قضية شكلية، الآخرون رأوا بأن هذه ليست منطقية: فقط أن يكون من هؤلاء لمجرد السلطة التنفيذية.

(...)

﴿قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(البقرة: ١٢٤) وإن كان من ذريته، وإن كان من آل إبراهيم، أو من آل محمد، لا ولاية له على الإطلاق، ولا يصح أن يعهد الله إليه نهائياً؛ لأنها قضية هامة جداً وواسعة جداً، وليست بالشكل الذي يقول الإمامية: هيمنة على ذرات الكون، ويجب أن يعلم الغيب، لا، بل على النحو القرآني، مَن يَخلُف رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) يجب أن يكون على هذا الأساس: على النحو القرآني تماماً.

يأتي بهذه الآية، ألم يأتِ بها ثم يذكر في نهايتها: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(المائدة:٥٦) في إطار الحديث عن بني إسرائيل من قبل الآية ومِن بعدها؟ إذاً أليس هذا يُعتبَر من أبرز مظاهر رحمة الله بعباده؟ لكن هم الذين يظلمون أنفسهم هم، أي: لا يزال أمام العرب، أمام المسلمين الآن وهم يبحثون كيف يَسلَمون شر هذا العدو الكبير، أليس لديهم هنا ما يجعلهم غالبين على العدو؟ لهذا قال بعد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾(المائدة:٥٧) إذا كان لدينكم قيمة لديكم فهؤلاء هم يتخذونه هزواً ولعباً، هل ينبغي أن تتخذوهم أولياء؟! ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ﴾ لا تتخذوهم أولياء ﴿وَاتَّقُوا اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(المائدة:٥٧) أليس هذا تحذيراً من جديد؟ بمعنى: أن الإنسان في أيِّ مرحلة من هذه المراحل التي يبدو أمامه شيء كبير، وأمامه أشياء خطيرة، يجب في البداية أن يلتفت إلى الله أولاً يتقي الله، إذا نسي الله نسي نفسه، هذه القضية أساسية.

إن الله فيما يتعلق بالناس ربط مصلحتهم، وخيرهم، وعزتهم، واستقامتهم به؛ ولهذا قال: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾(الحشر:١٩) متى ما نسيت الله نسيت الموقف المناسب مع هذا العدو، ولا تدري إلاّ وقد أصبحتَ تتولاه، وتعمل لصالحه، وعلى أساس أنك تريد أن تَسلَم شره، ولن تَسلَم شره؛ ولهذا قال هنا: ﴿وَاتَّقُوا اللّهَ﴾ يجب أن تكون هذه في المقدمة: أن نلتفت إلى الله سبحانه وتعالى، ونتقيه؛ لأننا إذا لم نتقِه فسننسى أنفسنا، إذا لم نتقِه فسندخل في مواقف يكون هو من يضرِبنا ضربة شديدة، لا تُعتبَر ضربة العدو شيئاً بالنسبة لضربته، أي: فيجب أن نخافه هو، وأن نتقي ما يمكن أن يحصل من جانبه إذا عدلنا عمَّا وجَّهَنا إليه، لا أن نتقي العدو، ونشغل أنفسنا ونخشى العدو ونحاول أن نسترضي العدو، وفي الأخير نرى أنه لا ينفع معه أيُّ شيء.

هذه الحالة أعتقد إذا أحد تأمل - وعلى أساس كثير مما يبلغنا من مواقف الناس - أن تقوى الله قضية منسية، في موضوع الحالة التي الناس فيها الآن في مواجهة الخطر الأمريكي والإسرائيلي، ترى الناس كلاً منهم في الأخير يحاول هو كيف يتقيه، وينسى أن يتقي الله، لكن عندما تتقي الله فسيُبيِّن لك ما يشكّل وقاية لك مِن ذلك العدو، وإذا نسيتَ الله فستنسى نفسك وتدخل في مواقف لا تشكّل لك وقاية لا مِن الله ولا من العدو.

هم هكذا عندما يقول الله عنهم إنهم يتخذون ديننا هزواً ولعباً يقول: ﴿وَإِذَا نَادَيتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَومٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾(المائدة:٥٨) فكيف تتولون هؤلاء، وهم لا قيمة لهذا الدِّين لديهم، لا قيمة للقيم الفاضلة لديهم، لا قيمة للإنسان عندهم؟!

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَينَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾(المائدة:٥٩) لاحِظ على أساس هذه الرؤية الدِّينية من القضايا كلها، بما فيها تحديد الموقف من هذا العدو الذي يعني في الأخير أنه دعوة لهذا العدو إلى أن يتجه إلى هذا الدِّين، فهو من الله الذي نعرفه نحن وأنتم، ونؤمن به نحن

(١) يدّيوَل: يَتَدَيوَل: من اللهجة العامية، وتعني: يتولى السلطة والحكم.

وأنتم، إذاً فماذا تنقمون علينا؟ ليس هناك شيء تنقمونه علينا إلاّ أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم، فهل هذا شيء يدفعكم إلى أن يكون موقفكم منا على هذا النحو السيئ؟ هل أنتم في مواجهة حالة سيئة من جهتنا أم أن الواقع أنكم أنتم سيِّئون؟ أنتم السيِّئون؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيهِ﴾(المائدة:٦٠) ﴿مِن ذَلِكَ﴾ أنك قد تعود إلى من يتولى هؤلاء لأيِّ اعتبارات، يريد مثلاً أن يحصل على مصالح، أو يأمن شراً مُعيَّناً من جانبهم، فيتولاهم، وبالنسبة لأهل الكتاب هم عندما يكونون رافضين فمعناه: أن القضية متضحة أن ما لدينا هو إيمان بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم، إذاً فأيُّ شيء يدفعكم إلى أن تعادونا؟! مثلما قال في آيات أخرى يكون هناك دوافع بعضها دوافع مصلحية على طريقة: ﴿اشْتَرَوا بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾(التوبة:٩) هذا قضية ثابتة عندهم، فيقول: المثوبة التي هي الشر من كل ما أنتم تريدونه من وراء (تولي) أو من وراء (إعراض) من جانب بني إسرائيل، أو تولي من داخلنا ﴿مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(المائدة:٦٠) هذا فيما يتعلق ببني إسرائيل لأنه حصل مِنهم مسخ، لكن المسخ داخل هذه الأمة إن لم يحصل حقيقياً - بل هناك روايات أنه قد يحصل - فقد يكون مسخاً معنوياً للنفوس من داخل، تكون نفوس قردة ولو أن الغلاف ما زال غلاف إنسان.

هذه فيها تهديد لبني إسرائيل عندما يكونون دائماً يعرضون، ويصدون، ومعظم ما يحصل لديهم هو ماذا؟ قضايا مصلحية، أحياناً يحصل الصد - مثلاً - من كبار حاخاماتهم (الأحبار والرهبان) لأن القضية قد قدِّمت بشكل وراءها مصالح كثيرة من العامة، هو يتصور بأنه أن يتجه إلى هذا الدِّين معناه أن يفقد كل تلك المصالح التي تربط العامة به على أساس ما هم عليه (هو وَهُمْ) ما هم عليه: تلك الثقافة وذلك الدِّين، فيرى أنه سيخسر مصالح كثيرة، ومقاماً معنوياً.

﴿وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾(المائدة:٦١) معنى هذه: دعوة لهم إلى الإيمان بشيء هم لا يجهلونه في الواقع، ولا يستطيعون أن يعتبروه باطلاً؛ ولأنهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً، وضلوا ضلالاً كبيراً، فإنهم يتحولون إلى ماذا؟ إلى التضليل، لا يتحولون إلى الإيمان، بل إلى التضليل، وبهذه الطريقة المخادعة ﴿وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ يخرجون من عنده كما دخلوا، كفر ﴿وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾.

﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَولاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَولِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(المائدة:٦٢، ٦٣) هذه الآية رجعت إلى عمق تاريخهم (تاريخ بني إسرائيل) عندما يكون هناك تضليل، عندما يكون هناك معاصٍ، والطرف الذي المفروض أن يكون هو من يتحرك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تصبح المسألة في الأخير سلوكاً ثابتاً عند المجتمع ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ هذه القاعدة الجماهيرية، وهذه النتيجة السيئة عندما كان أحبارهم ورهبانهم ضالين، وكانوا هم أنفسهم يأكلون سحتاً، كبارهم أنفسهم يأكلون أموال الناس بالباطل، كما قال في آية أخرى، فترى كيف تكون النتيجة أن يكون مراجع الناس مهتدين، أو يكون مراجع الناس ضالين، إذا كان مراجع الناس ضالين فإنهم يتحولون هم إلى ضلال مثلما قال بالنسبة لهؤلاء: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(المائدة:٦٢) من الذي أضاعهم؟ الربانيون والأحبار كما قال الله: ﴿لَولاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَولِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(المائدة:٦٣) هؤلاء الربانيون والأحبار لبئس ما كانوا يصنعون عندما كانوا لا ينهون الآخرين عن الإثم والعدوان وأكل السحت.

هنا يُبيِّن كيف هم في تعاملهم مع دين الله، وتعاملهم مع عباد الله إلى هذه الدرجة التي يتركون الناس يَضلون مثلما قال: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ تجدهم أيضاً جريئين في منطقهم أمام الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُم مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَينَا بَينَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ﴾(المائدة:٦٤) الآن في سياق الآيات أليست حول تبيين واقعهم، وضلالهم، وخبث نفوسهم، وجُرْأتهم على كتب الله ورسله وعباده، وأيضاً جرأتهم في منطقهم على الله وافترائهم على الله سبحانه وتعالى؟ هذا هو سياق الآية، معناه هنا ماذا؟ أنهم اتهموا الله بالبخل ﴿يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وفي اللغة العربية معناها: التعبير عن البخل،

وليس المعنى أن يد فلان مربوطة إلى عنقه، عندما يقول: يد فلان مغلولة، أو يد فلان (ناشفة) أو (يابسة) أو أشياء من هذه، هذه الأشياء التي تستعمَل في اللغة العربية بشكل عام، أي: مجمل العبارة تعني: هكذا، مجمل ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ تعني: هو بخيل، مثلما قالوا في آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾(آل عمران:١٨١) إذاً يُبيِّن كما هي سُنته في التبيين لهم أمام كل ادعاءاتهم يُبيِّن لهم: لا، بأنه سبحانه وتعالى هو كريم، وسخي، وجواد، بعبارة عامة بمجمل قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

إذاً سياق الآية واضح هو يتحدث عن بني إسرائيل، يُبيِّن كيف موقفهم من كتب الله ورسله ومن عباده، وموضوع الهداية في موقفهم من سبيل الله، وكيف هم يحاولون دائماً أن يصدوا عن سبيله ويجعلوها عوجاً كما قال في آية أخرى: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾(آل عمران:٩٩) ليس المقام الآن مقام أخذ ورد حول كيفية الله، هل هو كذا أو كذا، هل المقام في هذا الموضوع أو في موضوع آخر؟ هذا التعبير اللغوي لا يزال عند الناس إلى اليوم، أليسوا يقولون: (فلان يده ناشفة)؟ لا يريدون أن يده يابسة عند ملمسها، لا، هم يعرفون أن معناها كناية عن البخل. (فلان يده خضراء) أليسوا يقولون: يده خضراء؟ أي: كريم، لا يوجد أحد عندما تقول له: (يده خضراء) يتبادر إلى ذهن السامع أن معناها: يد خضراء، هذه اليد (العضو) مع أن لديه يداً، أليس الإنسان لديه يد؟ لا يتبادر إلى الذهن أن اليد عندما نقول له: يده خضراء أن هذه اليد نفس هذا العضو أخضر، بل يتبادر إلى ذهنك من مجمل العبارة ماذا؟ أنه سخي، وعندما يقولون: (فلان لسانه طويل) في سياق كلام حول بذاءة، وأشياء من هذه، هل يتبادر إلى ذهنك أن لسانه إلى فوق صدره، أو يتبادر إلى ذهن السامع نفسه عندما تقول: (أنت يا فلان لسانك طويل) يتبادر إلى ذهنه أنه بذيئ؟ أي: لا يتحكم في منطقه، ينال الناس بلسانه (بمنطقه).

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُم مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَينَا بَينَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(المائدة:٦٤) لاحِظ هذه القضية نقولها دائماً: هذا أسلوب قرآني واضح، وتجلى في هذا العصر بالنسبة لنا - لا نعرف من قبلنا هل كان يتجلى لهم في عصورهم؟ - تجلى فعلاً أهمية أن يُعرَف واقع هذا العدو حتى يكون الناس بعيدين عن التولي له، وحتى يكون الناس في نفس الوقت أقوياء عليه، وحتى يكونوا مستبصرين فيعودوا إلى من يعطيهم تولّيه غلبة على هذا العدو، وأنه دائماً يُبيِّن هذا الطرف، أليس يُبينه دائماً؟ يُبيِّن واقعه بأنه في واقع يُعتبَر ضعيفاً، واقع ضعف لِمَا هو عليه من خبث؛ ولهذا قال: ﴿وَأَلْقَينَا بَينَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ أليس هو هنا يُبيِّن لنا نقطة ضعف كبيرة فيهم؟ إذاً فكيف تنطلق إلى توليهم، أو تفكر إلى درجة أنك تُنفِّذ مخططاتهم، وأنت ما زلت تقول: (هم فعلاً مجرمون، وأعداء الله، وشياطين، لكن نحن نريد أن نَسلَم شرهم)؟!

إن نسيان هذه القضية يُعتبَر من الأشياء الخطيرة جداً عند الناس اليوم، سواءً حكاماً، أو شعوباً؛ لأنهم دائماً يرون الطرف الآخر قوياً، واليهود خبثاء هم يعرفون كيف يؤثرون نفسياً، يعرضون طائراتهم، ويعرضون حاملات الطائرات، ويعرضون أساطيلهم البحرية، ويعرضون أشياء من هذه، فينهار عندما يراهم هكذا، رجع في الأخير عندما رآهم أقوياء، ورآهم عبارة عن جدار من الصلب، أليس يراهم هكذا؟ ثم أين سيتجه؟ سيتجه إلى توليهم، وقبول ما يريدون أن ينفذه، وهو ما زال في نفس الوقت يلعنهم.

لاحِظ كيف أنها قضية هامة جداً، والقرآن عندما يركّز على موضوع فعلاً تجد أنه هام جداً جداً تَذَكّره واستشعاره في نفوس الناس، فدائماً كلما مررنا تقريباً بآيات من أول سورة قرأناها (سورة البقرة) ألسنا نجد هذا الأسلوب يمشي معنا؟ كلما يذكر تولي الكافرين أو ما قد يدفع الناس إلى توليهم فإنه يُبيِّن واقعهم؛ لتعرف أنهم ضعاف، أنهم ليسوا إلى درجة أن تفكر بأن تتولاهم وتنفذ مخططاتهم، فأول شيء: هم جريئون على الله، أليست هذه قضية؟

ثانياً: انظر ماذا قال الله بالنسبة لهم: إنه ألقى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وأنه كما لو - حسب تعبيرنا - تَكفّل بإحباط مؤامراتهم فلا ينجحون بالشكل الذي يريدون ﴿كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾(المائدة:٦٤) ماذا يريد الناس بعد هذا؟ كيف يفكرون في توليهم وقد قال: ﴿كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ ثم يأتي بعض الناس ليقول: (نحن حاولنا كذا حتى نقي البلد ضربة محتملة) أليس هكذا؟! لا، لا تَعتبِر أنك وقيت بلادك على الإطلاق وأنت ما زلت تنظر إليهم هذه النظرة أبداً، سيسلطهم الباري عليك حتى لو لم يكن في بالهم فسيسلطهم عليك.

هل تعتقد بأن كل شيء يخططون له، وكل شيء يفكرون فيه، أنه سيَنفُذ إلى أن يُحقِّق ما يريدون؟ هذه

﴿كُلَّمَا أَوقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ﴾ سيجعلهم وقودها، ويجعل آخرين ممن يتولونهم ويتخاذلون أمامهم أيضاً ممن يُضرَبون فيها، ولن يُحققوا الغاية المرادة من وراء إشعال الحروب، وهذه فعلاً تُبيِّن أن هذه الفكرة عندهم، وملموس في سياستهم - على طول هذا العصر الذي نعرف عنه - محاولة إثارة حروب، إثارة مشاكل، قضية أساسية لديهم، يعتقدون بأنهم لا يمكن أن يسيطروا على العالم إلاّ بهذه الطريقة، يَضرِبون هذا البلد بهذا البلد، ويثيرون الحروب بين هذا البلد وهذا البلد وهكذا، إضافة إلى أنهم أيضاً يستفيدون اقتصادياً؛ لأن لديهم شركات كبيرة من التي تُصنّع مختلف الآليات، آليات الحرب سواءً سلاحاً أو أشياء تقنية أخرى.

﴿وَيَسْعَونَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ ماذا قال سابقاً عمَّن يفسدون في الأرض؟ ألم يعتبرهم حرباً لله ورسوله؟ أليس هذا يعني: بأنهم أيضاً في حرب مع الله؟ إذاً قدَّمهم للناس وشخّصهم أمام الناس بأنهم في أضعف حالة، ولكن عندما تكون أنت من يُشخّص لك هذا العدو أمامك فلا تثق بالله، ولا تكاد تصدقه - فعلاً كأن الناس لا يصدقون الله نهائياً - كأننا لا نصدقه وناسين له تماماً، هنا يصبح الناس أسوأ منهم فعلاً، يصبحون أسوأ منهم في واقعهم.

﴿وَيَسْعَونَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾(المائدة:٦٤) هو قال هناك: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَونَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾(المائدة:٣٣) اعتبرهم محاربين له ولرسوله، ثم أن يقول: ﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(المائدة:٦٤) أن تفهم ماذا وراءها عندما يقول: لا يحبهم، أي: لا يحبهم فقط؟ لا، بل يعمل لضربهم، لكن عندما ترى أن مجمل الموضوع بالنسبة لبني إسرائيل، ما هو السبب الرئيسي الذي أوصلهم إلى هذه الحالة؟ هو أنهم ماذا؟ أنهم لم يؤمنوا بآيات الله، أليس كذلك؟ لم يلتزموا بهدى الله، فكانوا على هذا النحو. إذاً الآخرون (المسلمون أنفسهم) عندما لا يهتدون بهدي الله فقد يصلون إلى ما وصل إليه بنو إسرائيل، أو إلى أسوأ مما وصل إليه بنو إسرائيل.

﴿وَلَو أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(المائدة:٦٥) أليس هذا هو نفس الأسلوب السابق؟ أي: كل ما قد ذكر عنهم من أشياء سيئة، معنى هذا ماذا؟ إيحاء، أليس معنى هذا أن الموضوع هو خطاب للناس وأن يفهموا؟ أي: ليحصل لديهم رؤية، ويحصل لديهم فهم، ويحصل لديهم ثقة بالله، ويحصل لديهم معرفة بالعدو أليس كذلك؟ المسألة أيضاً لَمَّا كانت على هذا النحو: خطاب للنفوس، ولتكون النفوس لديها هذه الرؤية، ولديها هذا الموقف، يحاول أيضاً ألاّ تصل الحالة عندك أنت على أساس أنك متفهم؛ لأن هذا الكلام يُقدَّم لأمة تتفهم، فلا تصبح المسألة عندك عداوة شخصية، ولا تنسَ أن مهمتك دعوة الآخرين، وأن تكون محباً، وتحرص على أن يهتدي الآخرون كائناً من كان، مثلما قلنا سابقاً حول هذه النقطة تكلمنا كثيراً حول أهميتها؛ لأن مما يُبيِّن لنا فعلاً أن الخطاب القرآني جاد، أي: هو يُقدَّم كخطاب لأنفس تفهم، يعطيها رؤية لتنطلق؛ لهذا يقول: لكن لا نريد أن يكون عداؤك لهم عداءً شخصياً، مثلاً قد يكون ما يستوحى من هذه أن يظل عداؤك لهم عداءً من أجل الله، وتلتزم في حركتك في مواجهتهم في هذا السبيل الذي رسمه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَو أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(المائدة:٦٥).

﴿وَلَو أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِن رَبِهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾(المائدة:٦٦) كذلك أهل القرآن، أليس هذا بالتأكيد أن أهل القرآن لو أقاموا القرآن لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم؟ إذاً هذه العبارة ماذا تعني؟ عبارة تحكي استقراراً أليس معناها استقراراً؟ استقرار للأمة، لا تحصل هذه الحالة إلاّ في وضعية استقرار، استقرار ماذا؟ استقرار سياسي، واقتصادي، وثقافي معناها؛ لأن عبارة ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ هي تدل على الأشياء الأساسية بأن تحصل حالة كهذه، أي: سيكون هناك استقرار سياسي، سيكون هناك استقرار اقتصادي، سيكون هناك مجتمع آمن مطمئن.

﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾(المائدة:٦٦) ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ﴾ قد تكون محدودة، يحكي في تاريخهم، ﴿مُقْتَصِدَةٌ﴾ يقولون: المقتصد هو فوق الظالم لنفسه، أي: هو الذي يؤدي الواجبات ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَومَ الْكَافِرِينَ﴾(المائدة:٦٧) أين هي هذه الآية؟ أليست في (سورة المائدة) وقد بلَّغ الرسالات؟ ألم يكن قد بلَّغ الرسالات بكلها؟ في هذه المرحلة قد عُرِف التوحيد لله، وعُرِفت العبادات، وعُرِف الجهاد، وعُرِفت معظم الأشياء تقريباً. المشهور فيما يتعلق بهذه الآية أنها نزلت في شأن ولاية الإمام علي عليه السلام في (يوم الغدير) كما روى الإمام الهادي عليه السلام فلما نزلت لم يستجز أن يتقدَّم خطوة على موقع نزولها؛ لأن عبارتها هنا عبارة هامة،

عبارة قوية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ إن لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك (قضية مُعيَّنة) فكأنك لم تعمل شيئاً، فكأنك لم تبلِّغ شيئاً، أليس هذا يدل على أنها قضية هامة جداً؟

الآية هذه نفسها توضح لنا القضية ما هي؟ القرآن كتاب أحكِمت آياته، من نفس الآيات تعرف أنها قضية لن تكون إلاّ القضية التي عادةً يتنافس الناس فيها، وتتطلع إليها نفوس الكثير من الانتهازيين - على ما يسمونهم - قضية ولاية الأمر، بلِّغ التوحيد، أليس التوحيد لله أكبر قضية؟ بلِّغه، إذاً بالتأكيد ليست هذه قضية التوحيد هنا، ﴿وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ألم يقل: والله يعصمك من الناس؟ ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَومَ الْكَافِرِينَ﴾ بلِّغ الصلاة، هل ما زال يحتاج بالنسبة لتبليغ الصلاة إلى عبارات كهذه؟ بلِّغ الصيام، بلِّغ الزكاة، الحج، الجهاد، المواريث، الأحكام المتعددة في مختلف القضايا بلِّغها.

إذاً ما هي هذه القضية الهامة التي يبدو وكأن الرسالة بكلها مرتبطة بها؟ أي: إذا لم تكن قائمة فكأن هذه الرسالة بكلها لا فاعلية لها، أن الرسالة بكلها تُفرَّغ من مضمونها عندما يقول: ﴿وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أليس هنا كأنك لم تبلغ؟ ﴿فَمَا بَلَّغْتَ﴾ معناه أن ما بلَّغته يُفرَّغ من معناه فكأنه لا معنى له في الأخير، هذا يعني: أن ولاية أمر الأمة على أساس القرآن الكريم تشكّل ضمانة أساسية لمسيرة الدِّين واستقامة الدِّين، واستقامة الحياة بكلها، ما هي القضية الخطيرة التي نرى بأن الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) بحاجة إلى أن يُقال له: ﴿وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؟ بلِّغ التوحيد وفي ظروف قاسية، وكان يحتاج في نفس الوقت إلى حراسة وهو في مكة وهو أيضاً في المدينة كان يحتاج إلى حراسة، بلِّغ كل الأشياء، لا نعلم بأن هناك قضية يبدو أنه كان يتخوف من تبليغها، أو قضية قد يرى بأنها حساسة أن تُبلّغ على نحو حاسم تماماً، أي: يقفل المجالات تماماً أمام كل الموسوسين، والمتطلعين للاستيلاء على السلطة (على الخلافة) من بعده.

في هذه المرحلة هل كان هناك كافرون يخشاهم؟ هو لم يخشهم وهو في أوساطهم في مكة، لم يكن يخشاهم وهو في بداية مرحلة المدينة. نزول (سورة المائدة) كانت الجزيرة قد أسلمت (بعد الفتح) أسلمت اليمن، وأسلمت الجزيرة، وخصوصاً هذه المنطقة، أين هم الكافرون الذين قال: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَومَ الْكَافِرِينَ﴾؟ هل يمكن من النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) أن يتخوف عن تبليغ شيء خوفاً من الكافرين؟ واضح ماذا قال في مكة عندما عرضت عليه قريش أشياء كثيرة، ألم يقل: ((لو وضعوا الشمس في يمني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))؟ أليس هذا موقفاً قوياً؟ ألم يتآمروا عليه في نفس الوقت ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ﴾ (الأنفال:٣٠)؟ إذاً فهي في قضية (ولاية الأمر) بالتأكيد؛ لأنها قضية حساسة، وتجلى من بعد موته (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) أليست هي التي تجلى فيها لعبة، حصل أخذ ورد واجتماعات، وخلاف وشقاق، وأشياء من هذه، لم يختلفوا على صلاة، ولا على توحيد، ولا على زكاة، ولا حج، ولا شيء، ألم يكن أول ما اختلفوا عليه هذه القضية (قضية الولاية)؟

أن يقال للرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) أن يبلغها على هذا النحو أليس هذا يدل على أن هذه القضية بالغة الأهمية، وأنه إذا لم يبلِّغ ويعلن فيكون الناس عارفين جميعاً - وبلَّغ في الحج قبل أن يفترق الناس إلى بلدانهم - فكأنه فرَّغ هذه الرسالة من محتواها، ولم يبقَ للدِّين معناه، ولن يكون لهذا الدِّين أثره في الحياة إذا لم تبلِّغ هذه؟

قد يكون الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فعلاً هو يعلم بالقضية، وعمل في البداية أشياء كثيرة، تُبيِّن للناس أن الإمام علياً هو الشخص الذي يؤهله من بعده، لم يكن يؤمر عليه أحداً، أحاديث كان يقولها مرة هنا ومرة هنا بالنسبة للإمام علي، لكن بقي الإعلان النهائي بشكل صريح على الأمة، ربما كان يُفكر ما هو الأسلوب الأنسب؟ كيف يعمل؟ وأشياء من هذه، ليس إلى درجة أن يقعد، هو إنسان قوي، وإنسان لا يخشى أحداً إلاّ الله، لكن أحياناً قد يكون يتخوف في أشياء كيف تكون الطريقة المناسبة التي يمكن أن يبلِّغ الناس ويفهموا ولا يكون هناك أيُّ احتمالات أخرى، وهنا يأتي البلاغ من جهة الله سبحانه وتعالى بهذه العبارة الهامة: أن عليك أن تبلغ ﴿وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أليس هذا يوحي بأنه كان بالإمكان أن يتعرض لاغتيال أو لاعتداء فعلاً؟ مِن أين، مِن الكافرين أو مِن أين؟ مِن داخل! ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَومَ الْكَافِرِينَ﴾ الرافضين لِمَا تبلغه، الرافضين لهذه القضية، لن يهتدوا إلى أن يضروك، لن يهتدوا، وفعلاً لم يهتدوا، لم يتوقفوا. إن قلنا إن ﴿الْكَافِرِينَ﴾ معناها: المشركون فلا يوجد هناك مشركون في هذه الفترة، لا يوجد أحد، أسلموا كلهم.

فرسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) بلَّغها على أكمل صورة، أي: فهذا يُبيِّن لنا، عندما نقول: لا بُد أن نعرف شخصيته (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) كيف كان هو في نفسه؛ لأن ما قدَّم لنا بالنسبة للنبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)

هو أنه إنسان صادق، أليس كذلك؟ وأهم شيء بالنسبة للنبوة أنه إنسان صادق، والمعجزة تشهد على أنه إنسان صادق، وصادق...إلخ، أبو ذر صادق، وعلي صادق، وعمار صادق، وناس كثيرون هم صادقون، لو كانت المسألة نفس الصدق، لكن الشخص الذي يفهم القضية، وكيف يتعامل معها بما يليق بأهميتها، هي القضية الهامة جداً والواسعة جداً، لاحِظ كيف بلَّغ هذه القضية على أعلى مستوى، ألم يبلِّغها على أعلى مستوى؟

أوقفَ الناسَ جميعاً، ومَن تقدَّموا أرسل إليهم أن يرجعوا، وانتظر للمتأخرين، وفي وقت حرارة الشمس حتى لا يقولوا: لم يروه لوجود ضباب أو نحوه، بل شمس يقول أحد الرواة: (وإن أحدَنا لَيضع رداءَه تحت قدميه وفوق رأسه مِن حرارة الشمس وشدة الرمضاء) يدل على ماذا؟ قضية هامة سيبلِّغها، يوقفهم هنا في هذا المكان الذي ليس فيه ولا شجرة أو حجر - حتى لا يقولوا: إنهم لم يروا النبي - فقط ثلاث سَمُرات التي وقف تحتها (طَلْح) من هذه، أو يسمونه (قَرَض) وقف تحتها ورصوا له أقتاب الإبل، أقتاب الإبل أليست تشهد بأنه بمحضر ناس؟ ليس هناك أقتاب إبل إلاّ وهناك أناس كثير، ويصعد من فوق أقتاب الإبل، ويأخذ الإمام علياً معه، ويرفع يده بعد خطبة طويلة ويقول: ((إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين، فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه)) أليس هذا أعلى طريقة للتبليغ؟ لأن القضية هامة جداً.

لاحِظ أن المسألة كان هناك تآمر حولها، ولعبة، فعلى الرغم من حدة لهجة هذه الآية - إذا صحت العبارة - والاهتمام الكبير من جانب الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) في تبليغ ولاية الإمام علي تآمروا من جديد، وشاققوا، وفعلاً نصبوا شخصاً آخر، أليس هذا الذي حصل؟ لكن ما الذي بقي أن نفهم نحن؟ إذا لم نفهم أهمية ولاية الأمر في الإسلام فسنقول: (ليس هناك مشكلة، وأبو بكر كان رجلاً باهراً، وفلان كان باهراً، والمهم واحد) وأشياء من هذه، وهكذا (كل مَن جاء باهر، باهر) ولا تدري إلاّ وقد أصبحتَ تحت (بوش) ثم يقولون لك: (وبوش باهر) أليست هكذا؟

أهمية (ولاية الأمر) في الإسلام أنها تشكّل ضمانة لاستقامة الدِّين، وحيوية الدِّين، متى ما كان الدِّين قائماً، والدِّين حياً، تكون الأمة قائمة وحية، الأمة مربوطة بهذا الدِّين. إذاً فهي قضية هامة جداً، ليست قضية كيفما كان، إذا لم تكن حاصلة تصبح كثير من تشريعات الدِّين تستغل استغلالاً سيئاً بما فيها المساجد، بما فيها الصلاة، بما فيها منابر المساجد، بما فيها الحج، بما فيها الزكاة، بما فيها تقديم القرآن نفسه، فهي تشكّل ضمانة ضرورية جداً جداً لاستقامة الدِّين، ليس مثلما يقول (الاثنا عشرية) عندما يقولون: (إمام ثاني عشر غائب وحجة على عباد الله وهو غائب) لا يفهمون هم أهمية وقيمة وغاية ولاية الأمر في الإسلام، كيف تقول لي: ولي أمر للأمة وحُجَّة على الأمة وهو غائب مائة سنة بعد مائة سنة، بَلَغ إلى الآن ألفاً ومائة سنة.

ولاية الأمر تشكّل ضمانة دائمة لاستقامة الدِّين، فتصبح الصلاة لها فاعليتها، المساجد لها فاعليتها، منابرها لها فاعليتها، الحج له فاعليته، الزكاة لها فاعليتها، القرآن له حيويته، وهكذا، إذا لم يكن هناك شيء يموت الدِّين وتموت الأمة، مثلما هو حاصل الآن، وهناك (٥٧) ولي أمر، أليس هناك (٥٧) ولي أمر الآن على هذه الأمة؟ وهم أموات هم وهذه الشعوب، مثلما قال رئيس الوزراء الماليزي - كانت كلمته فعلاً كلمة مؤثرة - قال: (كيف مليار وثلاثمائة مليون مسلم ويزعجهم حفنة من اليهود؟!) يُخاطب الذين يزعجون الناس دائماً عن طريق الخطباء أن يدعوا الناس إلى وجوب طاعة ولي الأمر، لم يجرؤوا في قمة (منظمة المؤتمر الإسلامي) على أن يُصدِروا ولا حتى أمراً واحداً يكون فيه قسوة، أو يكون بالشكل الذي يردع أمريكا وإسرائيل، هل أصدروا أمراً واحداً؟! لهذا نرى الأمة ميتة: السبعة والخمسين والمليار وثلاثمائة مليون مسلم، بل يقولون: هم أكثر إلى حوالي مليار وخمسمائة مليون مسلم.

نحن نقول: إننا في مرحلة يجب أن نفهم ديننا، حتى لا يأتي اليهود في الأخير ليقولوا لنا: (دينكم هذا لا يُقدِّم أيَّ حل وليس فيه أيُّ رؤية، وهذا الدِّين لا يصلح، الحقوا بركابنا لتتحضروا، اتركوا هذا الدِّين لم يعمل لكم شيئاً) فنقول: (واللهِ صحيح). يجب أن نفهم ديننا؛ لأنه أول واجب علينا أن نفهمه بشكل صحيح من الناحية الاعتقادية أمام الله؛ لننزه الله أنه لم يكن عنده تقصير، وأن تشريعه لائق بجلاله، وعظمته، وملكه، وحكمته، وقدسيته، هذه قضية أساسية: أن تُفهم، حتى نعرف أننا أُتينا من جهة أننا أعرضنا عن ديننا، فنُضرَب ونحن نقول مثلما قال يونس: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَ إِلَهَ إِلاَ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنبياء:٨٧) لا أن نقول في الأخير: هذا الدِّين هو الظالم، هذا الدِّين هو الذي ضيعنا، هذا الدِّين هو الذي لم يُقدِّم لنا أيَّ حل.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيءٍ حَتَّىَ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾(المائدة:٦٨) ورجَع الموضوع إلى أهل الكتاب،

ألم يرجع الكلام كله إلى أهل الكتاب؟ أهل الكتاب - كما نقول - القرآن الكريم يوحي بأن هؤلاء سيكونون هم الأعداء الرئيسين والتاريخيين لهذه الأمة، وأن هذه الأمة لا ملجأ لها على الإطلاق إلاّ أن تعود إلى هذه الطريقة التي هداها الله إليها: تعود إلى الله وتعتصم بحبله.

أليس الشعوب الآن يسبُّون زعماءهم؟ إذاً لأنها قضية خطيرة - أي: الآن هم يسبُّون زعماءهم، وأنهم لم يعملوا شيئاً، عندما تفتح أيَّ تلفزيون في مقابلة من هذه التي تحصل من القنوات في برامج مُعيَّنة، حول وضع هذه الأمة - هنا يُبيِّن في القرآن نفسه أنه لم يأتِ تقصير من جانب الله، هو يعلم أن الأمة لا يستقيم أمرها، ولن تكون قوية، ولا تستطيع أن تغلب عدوها إلاّ إذا كانت على هذا النحو، وأنه قد رسم هو الطريق التي يجب أن يكون عليه من يلي أمرها، وأنه أعطى ولاية أمرها أهمية بالغة، أليس كذلك؟ في مقابل ما يُقدَّم: أن الإسلام ترك الأمة على حالها، ويختارون من يريدون، ويعملون كيفما يريدون، ويتشاورون، وينتخبون، وأشياء من هذه، أليس معناه في الأخير وكأن هذا الدِّين هو الذي ضيعنا؛ لأنه لم يُبيِّن لنا طريقة واضحة؟ نقول: قضية (ولاية الأمر) التي تعني قيادتكم أعطيت اهتماماً ربما أكثر من أيِّ قضية في عملية تبليغها، بالشكل الذي يوحي بأهميتها لديه، إذاً فأنتم أُتيتم أنتم من جهة أنفسكم، وليس من جهة الله بتقصير من عنده.

جاء من قبلها ﴿وَلَو أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّورَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِن رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾(المائدة:٦٦) أليست هذه واحدة؟ بعدها: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيءٍ حَتَّىَ تُقِيمُوا التَّورَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾(المائدة:٦٨) والذين ليسوا على شيء كيف يكونون؟ على ضلال، ضلال، أي: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيءٍ﴾ لستم على شيء إيجابي وحق وصواب ﴿حَتَّىَ تُقِيمُوا التَّورَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيكُم مِن رَبِّكُمْ﴾ إذاً فهذه الأمة لو أنها أقامت القرآن لأكلت من فوقها ومن تحت أرجلها، وليست على شيء حتى تقيم القرآن ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُم مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَومِ الْكَافِرِينَ﴾(المائدة:٦٨).

يأتي المفسرون يمرون بسرعة من على هذه: (﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ﴾(المائدة:٦٧) أي: دينه ﴿وَإِن لَمْ تَفْعَلْ﴾ وإن لم تبلِّغ فكأنك لم تبلغ دينه ﴿وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: يمنعك ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَومَ الْكَافِرِينَ﴾) ودخل في الآية الثانية! دون أن يُقدِّم لهذه القضية أهميتها، ما هو الذي يجعلهم يمرون مِن عليها بسرعة؟ أليس لأن أبا بكر فوق جنبه؟ إذا كان أبو بكر فوق جنبك وعُمر فوق الجنب الآخر، فلن تبصر القرآن، حقيقة، تصل عند قضايا هامة جداً مثل آية الولاية السابقة، ومثل هذه الآية، أي: من أبرز الآيات التي قدِّمت بشكل هام، وأعطيت أهمية كبيرة هناك: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(المائدة:٥٦) وهنا تُقدَّم بهذا المعنى الذي سمعناه بشكل هام جداً، وفي الأخير يَمشي حالَها[1] لأنه - يقولون - أنها نزلت في علي، وفي شأن ولاية علي، وهو لا يريد أن يكون علي فوق أبي بكر، ولم يعد هناك متسع معه لعلي؛ لأن واحداً على الجنب الأيمن، والآخر على الجنب الأيسر، لم يعد يدري أين يضع علياً.

إذاً هم يشغلون أنفسهم بالدفاع عن أشخاص مضوا وضيعوا أنفسهم وضيعوا الأمة في حاضرها الآن، وضيعوا الدِّين؛ لأن موقفهم سيكون ضعيفاً من الناحية الدِّينية في مقام الحِجَاج للآخرين، أنت عندما تورِّط نفسك في قضية باطلة فعلاً يكون موقفك ضعيفاً دائماً، وتسيئ إلى دينك، ويكون في الأخير ثمنُ تولي أبي بكر وعمر وعثمان الأمةَ، والدِّينَ، والشخصَ نفسه، ودنياه وآخرته، أليست هذه خسارة؟!

لنتركْ القرآن على أصله، اتركْ كل قضية على أصلها، رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) قال: ((من كنت مولاه فهذا علي مولاه)) نقول: قال: ((هذا علي مولاه)) لماذا تحاول أن تقول: (لا، أبو بكر)؟ لكان رسول الله سيقول (فهذا أبو بكر مولاه) ألم يكن من الممكن أن يقول هكذا؟ عندما يقول: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها)) كان من الممكن أن يقول: وأبو بكر بابها، ونؤمن بهذا، ألم يكن هذا ممكناً؟! عندما يقول: ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى)) ألم يكن من الممكن أن يقول لأبي بكر؟ فلماذا دائماً دائماً يحاولون أن يقحموا أبا بكر في المكان الذي وضع الله فيه علياً، ووضع فيه رسولُه علياً؟! ((علي مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي)) ألم يقل هكذا؟ وهم يروون الأحاديث هم باسم علي، أي: فيها لفظ علي، علي، علي...إلخ، يقولون: لا، يحاولون أن يغطوا عليها من أجل ألاّ يلزم أن يكون خيراً من أبي بكر، من أجل ألاّ يلزم أن يكون أفضل من أبي بكر!

كان من الممكن أن يعمل رسول الله هذه بدون أن تتعب نفسك، كان من الممكن أن يضع أبا بكر محل علي دائماً في كل واحدة من هذه الأحاديث التي أنتم تروونها، كان من الممكن أن يقول: (أبو بكر مع الحق والحق مع

(١) يَمشيِّ حالَها، أي: يفسر هذه الآية بما ينسجم مع هواه.

أبي بكر) ولَمَا قال: ((علي)) ألم يقل: ((علي مع القرآن والقرآن مع علي))؟ كان بالإمكان أن يقول: (أبو بكر مع القرآن والقرآن مع أبي بكر) أو يقول: (عُمر مع القرآن والقرآن مع عُمر) هذا موقف مُحرِج فعلاً، ويوقعهم في إحراجات، وأيضاً ربما مع الهجمة الثقافية من قِبَل اليهود تراهم في مواقف سيئة وضعيفة فعلاً، أي: سيصبحون في مواقف ضعيفة وسيئة في مواجهة الشُبه التي تأتي من جانب اليهود ضد الإسلام بكل تفاصيله.

فعندما يقول البعض: لماذا نذكر الماضين؟ قلنا نحن نذكر الماضين، ونحاول أن ننقد الوضعية بشكل عام، بشكل تقييم؛ لأن هذا واجبنا، ويجب علينا جميعاً بأن نقيِّم وضعيتنا فننظر ما الذي أدى بهذه الأمة إلى أن تصل إلى ما وصلت إليه، سواءً من داخل أهل البيت أو من غيرهم، وفعلاً تناولنا هذا، ألم نتناوله من داخل أهل البيت: من الزيدية، والاثنا عشرية، وغيرهم، ومن داخل السُّنية؟ لأنه قُدِّم ضلال رهيب جداً أوصلنا إلى هذه الحالة. ليس المعنى أننا فقط ننقد أبا بكر وعُمر، نحن ننقد آخرين من داخلنا نحن، من داخل أئمة الزيدية، ومن داخل خط أهل البيت، لماذا؟ لأنه لا يجوز أن تضع واحداً على جنبك الأيمن، والآخر على جنبك الأيسر، وواحداً فوق رأسك، وواحداً تحت إبطك، وواحداً... ثم تكون كلما دخلتَ إلى القرآن نظرتَ أولاً هل سيتناسب معهم أو تغطِّي عليه وتمشي.

يجب أن يُعطَى القرآن أولوية مطلقة، وما هو معلوم عن النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) معلوم عنه قضية الغدير معلومة عند المسلمين في مراجعهم التاريخية والحديثية، قضية معروفة، معروف أنه قال: ((علي مع الحق والحق مع علي))، ((علي مع القرآن والقرآن مع علي))، ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي)) هذه من القضايا المعلومة عند الأمة، ما هو الذي جعلها لا قيمة لها؟! سواءً آيات قرآنية، أو كلاماً معلوماً من رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) لأنه قد ورَّط نفسه بأشخاص، هؤلاء الأشخاص لا يستطيع أحد منهم أن ينجيك يوم القيامة نهائياً.

يجب أن تنزه الله؛ لأن القضية في الأخير هي تنتهي إلى أنك تضحي بقدسية الله وجلاله وعظمته من أجل الحفاظ على أشخاص سواءً أبو بكر وعُمر أو غيرهم، من أجل أن تحافظ على نزاهتهم، وأنهم كانوا، وكانوا، القضية - مثلما نقول - كل قضية تنتهي إلى الله، عندما تراها بأنها في الأخير تتنافى مع قدسية الله وجلاله وحكمته ورحمته وملكه وربوبيته وألوهيته، معنى هذا أنك تورط نفسك بأن تتخذ آخرين أنداداً من دون الله، فكانت ولاية الإمام علي ضرورية بالنسبة للناس لأنها ماذا؟ تزيح من فوق جنبك آخرين، تجعلك تبصر؛ ولأن علياً هو الشخص الذي لا يحرجك مع القرآن أو مع الرسول، هو منسجم مع القرآن، ومنسجم مع الرسول، لستَ بحاجة إلى أن تُهْبِط القرآن، بل إن الآخرين يُهبِطون الله سبحانه وتعالى حتى يتأقلم مع أبي بكر وعُمر وعثمان، أو رسوله حتى يتأقلم مع هؤلاء الثلاثة، أو كتابه، أهْبَطوا الدِّين بكله من أجل أن يتأقلم معهم، ليتمكنوا من أن يلبسوه، فكان ضحية.

ليس معنى ذلك أن المسألة انتهت إلى أن أبا بكر قفز مكان علي، أي: شخص مكان شخص، بل معناه ماذا؟ هبوط للدِّين، وتحريف للدِّين، وتضليل حتى أوصل الأمة إلى هذه الحالة، ليست المسألة أنه: شخص مكان شخص فقط، وأننا فريق علي، وأولئك فريق أبي بكر، وكأننا في نادٍ رياضي كل واحد يشجع فريقاً، لا، القضية كانت خطيرة جداً، الإمام علي شخص متكامل لا تحتاج إلى أن تُهْبِط الدِّين حتى يمكن أن يلبسه، لكن الآخرين عندما تحاول أن ترفعه إلى هذا المقام لا يرتفع لك هو، لا يمكن أن يرتفع لك، لا بُد أن تنزِّل الدِّين أنت إلى أن يصير على مقاسه، ومتى ما نزّلت الدِّين حتى يكون على مقاسه أصبح هابطاً، ولم يعد لائقاً بالله ولا برسوله ولا بكتابه، وتَهبِط الأمة فعلاً.

لذلك لا يجوز للناس أن تكون هذه الحالة لديهم أمام أيِّ أشخاص كانوا، سواءً من الصحابة أو من أهل البيت، أو من باقي الأمة كيفما كانوا؛ لأنك تجد في المقدمة إذا قلنا الصحابة لهم فضل لأنهم صحبوا رسول الله، أليست هذه واحدة؟! وأهل البيت لهم فضل لأنهم ذرية رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ترجع إلى رسول الله الكبير وإذا هو إنسان مُلزَم بأن يستقيم كما أمِر، وأنه لو عصى الله لعذبه، مُلزَم بأن يتبع ما أوحي إليه، أليس النبي يُقدِّم ما أوحي إليه قضية يجب أن يلتزم بها؟ أو أنه يُهْبِط ما يوحى إليه ليكون على وفق أهوائه؟ لا، يجب أن يكون هو ملتزماً ومستقيماً، وفعلاً كان ملتزماً بما أوحي إليه، ومستقيماً.

إذاً فمن نقول بأنه فَضُلَ لأنه صَحِبَه، أو لأنه من ذريته، ونرى أنفسنا في تعاملنا معه - هذا الذي فَضُلَ لكونه كذا - نرى أنفسنا بأننا قد أصبحنا نرفعه فوق القرآن وفوق الرسول بكله، يعني ماذا؟ يعني: أن هذا شخص

منحط، عندما ترى نفسك أنك بحاجة إلى أن تُهْبِط الدِّين حتى يتقايس مع فلان، فاعرف أن فلاناً هذا هو هابط هو، فإن أمكن أن ترفعه مثل (الأريل)[١] فلا بأس وإلّا فاتركه محله، واترك الدِّين عظيماً محله، كائناً من كان.

الآن يواجهوننا بمنطق يشبه منطق السُّنية داخلنا (فلان أو فلان) وأحياناً بعبارة: (العلماء، أو فلان من أئمة أهل البيت) أو بعبارات من هذه، نقول هذه قاعدة عامة سواءً كانوا من أهل البيت، أو من الصحابة، أو من باقي الأمة، أيُّ شخص نرى أنفسنا بأننا بحاجة إلى أن نُهْبِط الدِّين ونحن نحافظ على نزاهته في الوقت الذي يكون على حساب قدسية الله، فإن هذه قضية تُعتبَر من باب اتخاذ أنداد من دون الله، ليست قضية سهلة.

عندما نرى أيَّ إنسان إن أمكن أن يكون منسجماً مع الدِّين إذاً فلا بأس، وإن أدى إلى أن يُهْبِط الموضوع وأنت تدافع عنه فلا، معلوم بأنهم وهم يدفعون أحاديث صحيحة لديهم؛ لأن فيها ((علي)) ويغطون عليها، ويحاولون أن يتأولوها بشكل لا يلزم أن يكون علي أفضل من أبي بكر! ماذا يعني هذا؟ ألا يعني: أن أبا بكر هابط، لو كان يمكن أن يركب عليه هذا الموضوع وهو على مقاسه لكان اسمه بدل اسم علي في أيِّ حديث من هذه الأحاديث الصحيحة المعلومة الهامة، وليست فقط فضائل هامشية، بل فضائل أساسية.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(المائدة:٦٩) أي: موقف هذا الدِّين من الآخرين ليس موقفاً طائفياً أو قومياً أو شخصياً، هو دعوة للكل إلى أن يدخلوا فيه، ومن دخل فيه - وإن كان من الذين هادوا والصابئين أو النصارى من أيِّ فئة كان - سيصبح حكمه حكم المؤمنين ﴿فَلاَ خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ولاحِظ الأشياء التي تتكرر في القرآن أليست دائماً تحاول وكأنها تزيح من نفسيتك شيئاً قد ربما يترسخ؟ أليس كذلك؟ فيكون في الواقع غير إيجابي بالنسبة للقضية بكلها؛ لأنه قدَّم الحديث عن بني إسرائيل أنهم فعلاً أطَّروا الدِّين في إطار قومي، وشخصي، وعرقي، أليسوا هكذا؟ وسموه باسمهم هم (يهودية) ألم يسموا الدِّين باسمهم؟ وسموا النصارى الدين باسمهم (نصرانية)؟ والدِّين عند الله الإسلام.

ثم تأتي هذه القضية أساسية وهامة في موضوع إقامة الدِّين، وإقامة الدِّين هي: أن تقدِّمه بعنوانه العام، وأن تكون حركة الناس فيه وفي سبيله على أساس ماذا؟ على أساس رؤيته العامة هذه وليس وفق ماذا؟ رؤية شخصية، أو موقف شخصي، أي: ألاّ يغلط المسلمون كما غلط بنو إسرائيل فيؤطروه في أطر قومية أو مناطقية.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾(المائدة:٧٠) رسل منهم من بني إسرائيل.

﴿وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وهذه حالة تبدو قائمة عند الكثير من الناس، يتصور أنه يمكن أن ينصرف عن هدي الله، وعن بيناته، ويحسب (أن ليس هناك مشكلة بعد هذا) ﴿وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾(المائدة:٧١) انتهت المسألة إلى: أن طبع الله على قلوبهم فعموا وصموا الكثير منهم، ومتى ما عمي الناس وصموا - انظر كيف يُقدِّم لك هؤلاء؟ قضية خطيرة جداً - لم يعد الإنسان يهتدي للصواب، ولم يعد لشيء من هدى الله قيمة لديه وإن كان يفهم ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ تاب عليهم عسى أن... فلم ينفع ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ ثم عندما قالوا ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال بعد: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(النساء:١٥٥).

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ مع أن المسيح ركّز على موضوع توحيد الله وتذكير الناس بأن يعبدوا الله، ألم يقل: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾؟ ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(المائدة:٧٢) ومع هذا قالوا: ﴿ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾ ألم يقولوا: ثالث ثلاثة؟ اعتبرهم كافرين ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾(المائدة:٧٣) لا يصح، ولا يمكن، وليس واقعاً نهائياً أن يكون هناك آلهة متعددون، ليس هناك إلاّ إله واحد هو الله ﴿وَإِن لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(المائدة:٧٣) الذين لا ينتهون، رافضين لهذا التوجيه فلا ينتهون ليمسنهم عذاب أليم.

﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(المائدة:٧٤) لأنها قضية كبيرة يجب عليهم أن يتوبوا، يرجعوا إلى الله، ويطلبوا منه المغفرة.

(١) الأريل: المقصود به: جهاز استقبال إشارات البث.

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ﴾ أي: هم بشر ﴿انظُرْ كَيفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ﴾ هم أناس كانوا يأكلون الطعام، ألستم تعرفون بأن من يأكل الطعام هم ناس مثلكم؟ فلماذا تجعلونهم آلهة؟ ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(المائدة:٧٥) مع هذا البيان الواضح كيف يُصْرَفون هناك فينصرفون بعيداً عنه بإصرارهم على دعواهم ﴿إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾ ويجعلونه إلهاً، ويجعلون أمه كذلك.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيرَ الْحَقِّ﴾(المائدة:٧٦،٧٧) فكانوا يعظمون المسيح ويحبون المسيح إلى درجة أن جعلوه رباً! أليس هذا غلواً؟ هذا من الغلو. ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَومٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(المائدة:٧٧) هذه المعتقدات التي تعتقدونها هي ضلال؛ لأنه بيَّن لهم ماذا قال المسيح، أن المسيح قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ﴾(المائدة:٧٢) إذاً فما حصل هو نتيجة أهواء من متأخرين من بعد ممن ضلوا، لكن لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا مِن قبل، ومعنى هذا بأن الإنسان عندما يكون على ضلال، وإن كان بينه وبين من هو منبع هذا الضلال آلاف السنين لا يقول: ما دام قد مر - مثلاً - ألف سنة بينه وبين ذلك الذي بدأت هذه العقيدة من عنده، أو ألفا سنة، أو ثلاثة آلاف، فقد صارت حقاً! لا يتحول الباطل إلى حق مع مرور الزمن، أو يتحول الضلال إلى هدى مع مرور الزمن.

﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَومٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(المائدة:٧٧) هذا خطاب للمسلمين، كما هو خطاب لبني إسرائيل تماماً بأن على الناس ألاّ يتبعوا أهواء من ضلوا من قبل وإن كان بيننا وبينهم مئات السنين، يتضح أن هذا الشيء هوى، يتضح بأنه ضلال عندما تعرف الهدى، عندما تعرف بينات الله، وتعرف الهدى الذي من عند الله، ستعرف بأن الشيء الآخر هو ضلال، ولأنه هنا يُبيِّن الضلال ما هو، ومنابع الضلال كيف تكون.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(المائدة:٧٨) تجد هذا الكلام كله أليس يتحدث عن أمة ذكر في آيات أخرى بأنه اصطفاهم واختارهم على العالمين؟ بمعنى أنه ماذا؟ عندما ينصرفون عن هدى الله، عندما يتبعون أهواءهم، ويتبعون من ضلوا منهم، تنتهي المسألة إلى هذه: إلى خزي، إلى ذلة، إلى مسكنة، إلى لَعْن ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ليس لكون اسمهم بني إسرائيل، بل لأنهم عصوا واعتدوا، كذلك من يعصي ويعتدي.

﴿كَانُوا لاَ يَتَنَاهَونَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(المائدة:٧٩) هذا يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعندما ترى المسألة على هذا النحو، يكون قد حصل مثلاً من خلال فلسفة مُعيَّنة قدَّمتها بالشكل الذي يضيعها داخل بني إسرائيل، وداخلنا، خطاب القرآن فيما يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل أساسي أنه يجب على المؤمنين أن يكونوا أمة، عندما يكونون أمة كتلة واحدة متوحدة تستطيع أن تغير منكرات، وتستطيع أن تقيم معروفاً، وأن تأمر بالمعروف، لكن قُدِّم الموضوع بشكل ماذا؟ فردي: (أنه يجب أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر إذا كان، وإذا، وإذا، وإذا...! فإذا كان سيحصل عليك كذا: أنت خائف من ضر يلحقك، وخائف على كذا، أو تظن بأنه لا يؤثر، فهنا لم يعد عليك شيء)! لم يعد يُقدَّم كخطاب أنه يجب أن يكون الناس أمة كما قال الله: ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(آل عمران:١٠٤) ألم تُضَيَّع قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ لم يبقَ إلاّ الأشياء التي هي بسيطة جداً لم يعد فيها خوف نهائياً، المنكرات الكبيرة والمتوسطة والكبيرة جداً أصبحت لم يعد أحد ينهى عنها؛ لأن كل واحد قد خوطب خطاباً فردياً، ووجه إليه الموضوع توجيهاً فردياً، ورأى بأنه هو لا يستطيع، فلم يعد يلزمه، وكل واحد مثله من باقي الناس، من باقي أفراد الأمة أو علمائهم!

فعندما تُقدَّم فلسفة مُعيَّنة أو منطق مُعيَّن يؤدي بهذه المسألة إلى أن تضيع، فهنا يصح في الأخير أن يقال: ﴿لاَ يَتَنَاهَونَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ بأيِّ اعتبار كان، معناه أنك جئت تخاطب الناس خطاباً يجعل هذه القضية ضائعة، يضيعها من أوساط الناس نهائياً، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي قضية أساسية لا بُد من أمة، ويجعل الناس أنفسهم أمة بكل ما تعنيه الكلمة، وفي نفس الوقت يتناول الإنسان كفرد كل ما بإمكانه أن يتناوله من القضايا التي هي واضحة أنها معروف، وواضحة أنها منكرات في محيطه، يضاف إلى كونه واحداً من أمة تتحرك لتغيير المنكرات؛ لأن كثيراً من المنكرات لا تستطيع أنت وحدك، لكن مع الآخرين تستطيع أن تغيرها.

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(المائدة:٧٩) كما قال سابقاً: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(المائدة:٦٣) لاحِظ كيف غابت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أوساطهم نتيجة ثقافة تضليلية، قال هناك: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ﴾(المائدة:٧٧) ثقافة تضليلية أدَّت في الأخير إلى غياب مبادئ هامة في الدِّين، وضرورية بالنسبة للأمة، تنتهي المسألة إلى أشياء كبيرة مثل هنا: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّونَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(المائدة:٨٠) أليست المسألة انتهت إلى هذه ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾(المائدة:٨٠)؟ هذه قضايا غير قابلة للابتعاد عنها لأيِّ فلسفة مهما كانت، أيِّ فنقلة[1] وأقوال، وتحليلات، وفلسفات تجعل هذه القضايا على هذا النحو؛ لأنه إذا لم يكن هناك أمر بالمعروف، فقد تصل الأمة إلى أن تتولى بما في مقدمتها علماؤها، يتولون الذين كفروا، متى تصل بك الحالة إلى أن تتولى الكافرين؟ عندما يكونون هم في وضعية أقوى، وأنت في وضعية مستضعف، أليس كذلك؟ وعندما تكون المسألة عندك قد قدِّمت بشكل أنه قد صار يجوز لك، ولا يلزمك هنا، ويجوز لك هناك، هذا يعني: (تَولّي).

الآن لاحِظ لا يوجد أمر بمعروف، من أهم المعروف مثلاً: الجهاد في سبيل الله، أن يُعد الناس أنفسهم، وأن يُعدوا كل ما يستطيعون من قوة لمواجهة أعداء الله، أليس الناس ساكتون عن هذا المعروف؟ تكون النتيجة في الأخير ماذا؟ أن يتولوا الذين كفروا، سيقول فيما بعد: (أمَّا هذا الحاكم الذي أرسلوه لنا فواللهِ باهر، وليس مثل الحاكم الأول) وهكذا يصبح الناس في وضعية - لغياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - يصبحون إلى درجة أن يتولوا الذين كفروا.

﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾(المائدة:٨٠) - نعوذ بالله - هذا من أخطر الأشياء ﴿أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيهِمْ﴾ هنا في الدنيا، وفي الآخرة، والسخط وراءه خزي وعذاب وأشياء شديدة نعوذ بالله.

﴿وَلَو كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَولِيَاءَ﴾(المائدة:٨١) بأيِّ نبي من أنبيائه، لو كانوا يؤمنون ما اتخذوهم أولياء، ولَمَا وصلت بهم الحال إلى أن يتخذوهم أولياء ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(المائدة:٨١) خارجون عن هذا النهج الذي رسمه الله لهم، عن هذه الطريقة التي رسمها لهم.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾(المائدة:٨٢) هنا يوجد تركيز على قضية؛ لأنه أحياناً عندما ترى طرفاً آخر موقفه منك متشدد، ويُقدِّم أشياء من لديه باسم قوانين، أو باسم رؤى، أو أفكار، أو أشياء من هذه، ولا يرضى أن يقبل ما لديك، أحياناً إذا لم يكن لديك معرفة بواقعه، ومنطلقاته، ودوافعه، فقد يحصل لديك اضطراب، فتظن أنه - فعلاً - قد يكون لديه رؤية أفضل فتنتظر ما يُقدِّم؛ ولهذا دائماً هنا في القرآن الكريم يُبيِّن لك الطرف الآخر: بأنه هكذا في واقعه، ليس إلى مستوى - على الإطلاق - أن يُقدِّم أيَّ شيء جميل، أن يُقدِّم أيَّ شيء جيد، أبداً، ما قد تراه يُقدِّمه جيداً فوراءه سوء، فهنا يقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

فعندما نراهم معادين لنا بشدة، لا نرجع إلى أنفسنا - وهذا الذي يحصل، أي: من النعمة علينا ربما في هذا العصر عندما نقرأ القرآن نجد الأمثلة متوفرة بشكل كبير أمامنا - متى ما رأيناهم معادين لنا، جاء الكثير من هنا، من داخلنا، يرجع علينا نحن: (اسكتوا، أنتم ستؤدون إلى أن نتشوه أمام الغرب) لماذا؟ لأنه ينظر إليهم وكأنهم جميلون، وكأن منطلقاتهم صحيحة، وكأن رؤاهم تنطلق من نفوس طاهرة، وقلوب طاهرة. هنا القرآن يُبيِّن واقعهم حتى لا تضعُف أنت، أو تضعُف ثقتك بما أنت عليه، ثم تحاول أن تتنصل من أشياء من لديك، أليس هذا الذي يحصل الآن في الأمة؟ فاعرف بأنهم هم لَمَّا كانوا على هذا النحو؛ لأنهم سيِّئون هم؛ لأن منطلقاتهم ودوافعهم ونفسياتهم هكذا بالشكل الذي يقدِّمهم سيئين أمام ما كان من داخلهم هم: من أنبيائهم، وكتب تنزل عليهم، بيَّنها بشكل واضح.

تجد الناس ألم يكونوا بحاجة إلى هذه الرؤية؟ لأنك عندما تلمس متى ما قالوا هناك: (هذا الإسلام دين العنف لم ينتشر إلاّ بالسيف) رجع صاحبنا علينا: (اسكتوا، ولا كلمة عن الجهاد، ولا كلمة عن كذا، شوهنا الإسلام أمام أولئك) أليسوا فيما بعد يقولون هكذا: (اتركونا نُقدِّم صورة جميلة عن الإسلام أمام الغرب)؟ وعلى من يرجع؟ هو لا يرجع بالطريقة التي تجعله فعلاً يُقدِّم صورة جميلة عن الإسلام في الداخل وأمام الغرب، لا، وإنما يحاول أن يبعد الأشياء الجميلة في الإسلام، الأشياء الهامة التي تجعل هذه الأمة تُقدَّم بشكل جميل أمام الآخرين!

(١) الفنقلة: اختصار في التعبير مأخوذ من قولهم: (فَإِنْ قِيلَ).

فعندما يشرح كثيراً عن نفسياتهم، عن أهدافهم، عن توجهاتهم، هم ليسوا إلى درجة أن تراجِع نفسك - على الإطلاق - أمام أيِّ مطلب من لديهم، أو دعاية من لديهم، تراجع نفسك فتقول: (واللهِ عندنا غلَط) وأنت تسير على طريقة صحيحة، راجع نفسك عندما ترى بأنهم يستغلون أشياء هي أخطاء حقيقية، فانسفها قبل أن يستغلوها لتشويه الإسلام، هذه أبعدها أنت؛ لأنها أشياء سيئة حقيقة، لكن ليس كونهم ينقدونها لأنهم جيدون في كل ما ينقدون، ليس المعنى أنهم جيدون، بل هم سيِّئون، لكن هم ينقدون إذا كان لديَّ شيء هو سيئ، ولن يكون هناك شيء من داخل الإسلام سيئ نهائياً، لا يوجد داخل الإسلام ما يمكن أن يُستغل فيشوهه ويُقدِّمه سيئاً، إنما ما يُقدَّم من جهة المسلمين أنفسهم على طول هذه المرحلة (مئات السنين) كثير من المعتقدات، والرؤى، وحسبوها على الإسلام، وهي بعيدة عن الإسلام، هي مشوِّهة للإسلام في داخلنا ناهيك عن أن تكون مشوهة أمام الآخرين.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً﴾(المائدة:٨٢) أقرب الفئتين، هنا يجب أن نلحظ مسألة: (أقربهم) - هناك (أشد عداوة) - أقرب هؤلاء الناس مودة للذين آمنوا: ميلاً إليهم - ميلاً ممكن أن تحصل استجابة لهم ويميلوا إليهم - ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ أي: فئة مُعيَّنة داخلهم، ولا أدري هل ما زال هناك أحد من هذه الفئة، أو لم يعد هناك داخل النصارى فئة هي تبدو ملتزمة؟ هنا يذكر تاريخها، فكان منهم من أدركوا الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فآمنوا. ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ ماذا تعني هذه العبارة؟ هنا يقدِّمهم بشكل عندهم رؤية صحيحة عن الإسلام، عن الدِّين ﴿إِنَّا نَصَارَى﴾ معناه نحن أنصار لهذا الدِّين مثلما قال سابقاً: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾(آل عمران:٥٢) ليسوا فئة تُقدِّم الدِّين وتعطيه هوية قومية تسميه باسمها هي ﴿إِنَّا نَصَارَى﴾ هذه الفئة لا نعلم عنها شيئاً الآن.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(المائدة:٨٢، ٨٣) لاحِظ: ﴿آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: كأنهم امتداد لمن قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾(آل عمران:٥٢) فعندهم هذه الرؤية: نحن مؤمنون بك، ونحب أن تكتبنا مع الشاهدين، ما معنى الشاهدين؟ مثلما قلنا سابقاً: أنصار لدينك، نجسد دينك، نمثله بشكل نُقدِّم شهادة لعظمته.

﴿وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾(المائدة:٨٤) وهذه رؤية صحيحة عندهم، هاتان العبارتان تشخّصان واقعهم، أناس لديهم حرص كبير على أن يعملوا أعمالاً صالحة، لم نعد نحن بهذا الشكل! للأسف لم يعد السائد في أوساط المسلمين هذه الرؤية، في ثقافتهم، في حركتهم، هو: أننا نريد أن نعمل عملاً صالحاً، تجد الكثير باحثين عن فتاوى: (هل قد وجب؟ هل قد لزم؟) وأشياء من هذه، هؤلاء لديهم هذه الرؤية التي حكاها الله عن سليمان (عليه السلام) عندما قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾(النمل:١٩).

﴿وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾(المائدة:٨٤) هذا معنى أنهم لا يستكبرون: مسلِّمون أنفسهم لله، فعندما جاءهم الحق قبلوه بكل بساطة، هي هذه الفئة، ولا نعلم بأحد من هذه الفئة، لو وجد الناس هذه الفئة لكانت سريعة الإيمان، لكن هم قدَّموا أنفسهم متميزين عن الباقي من البداية ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ أليست هذه تعني أنهم فئة لا يعتبرون أنفسهم كالباقين، ولا تحت العنوان العام بكل ما تحته من مفاهيم باطلة، وضلال، فقدَّموا أنفسهم وكأنهم فئة أخرى من داخل هذه الطائفة الكبيرة؟

﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾(المائدة:٨٥) هذه الآية لا تعني أن تقول في المقابل (النصارى) تأتي تأخذها وتقول: النصارى أقرب الناس مودة، قد يكون النصارى الطبيعيون أقل عداوة من اليهود، وليس المعنى أنهم يودوننا، ولذلك تجد ما عملوا في (الأندلس) ما عملوا في بلدان أخرى، ما يعملونه اليوم أشياء سيئة جداً، أليسوا هم الآن يتحركون هم واليهود بشكل واحد؟ قدَّمهم في القرآن وكأنهم اتجاه واحد (أهل الكتاب) ويُقدِّم أحياناً تفاصيل تُبيِّن أن المراد اليهود، وتفاصيل تُبيِّن أن المراد النصارى، بعده يأتي بحديث عن رؤيتهم العامة بالنسبة للناس.

إذاً فالنصارى بشكل عام قد يكونون بوضعهم الطبيعي أقل عداوة من اليهود، أمَّا أن تقول: إن لديهم - أيضاً - مودة، ولديهم ميل، لا، النصارى بشكل عام، هنا يُقدِّم لك طائفة مُعيَّنة متميزة ميِّزت نفسها هي: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ يحكي عن داخلهم بأن من كان منهم قسيسين آمنوا وأسلموا في أيام رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم).

إذاً من قيمة هذه هي تُبيِّن أيضاً بأن دين الله سبحانه وتعالى، وهداه، هو بالشكل الذي يترك أثراً كبيراً عند من يحبون أن يتأثروا ويستجيبوا، مثلاً نوعيات كهذه متميزة، ألم يُقدِّم هذه داخل بني إسرائيل؟ حتى داخل اليهود، ألم يُقدِّم نماذج عالية؟ هذه هي في نفسها تُقدِّم شهادة على أن الآخرين فيما هم عليه من ضلال وخبث إنما كان بسبب أنفسهم هم، عنادهم هم، انصرافهم هم، أمَّا من يقبل دين الله ويهتدي به فلاحظْ كيف نماذجه التي يقدِّمها.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾(المائدة:٨٦ - ٨٨) بالنسبة لأهل الكتاب نهاهم في البداية ﴿لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾(المائدة:٧٧) مثلما قال هناك لكي لا يصل المسلمون إلى أن يَغْلوا في أيِّ شيء من تفاصيل دينهم، لا يحصل غلو، فكأنك متشدد بزيادة في موضوع مُعيَّن فتتجاوز الحد، فإذا تجاوز الإنسان الحد فإنما يدخل فقط في ضلال، لا يوجد بعد الحق إلاّ الضلال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ﴾ ولو تحت اسم آخر، أو تحت ترويض آخر، أو فلسفة أخرى ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ لا تتجاوزوا حدوده ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ هنا تجد بأن الدِّين يُقدِّم مسؤولية كبيرة، ألم يُقدِّم مسؤولية كبيرة وعملية بشكل واسع؟ ليست بالشكل الذي يحول دون أن تأكل من الطيبات؛ لأن الموضوع لا يُقدَّم وكأنك لا بُد أن تضحي بطيباتك، وتضحي بكل شيء، أي: لا تقرب هذا، ولا تقرب هذا ولا، ولا، ولا، من أجل أن تقوم بهذه المهمة، هي مهمة بإمكان الناس أن يقوموا بها بالشكل الطبيعي، إنما يكون بالشكل الذي يتجاوزون الصعوبات التي هم فيها في مسيرتهم العملية، فإن توفرت طيبات أكلوا، وإن لم تتوفر طيبات مشوا، مثلما كان يعمل رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) والإمام علي، إن توفر لحم أكل، وإن لم يتوفر إلاّ ملح أكل في ملح، وإن لم يتوفر إلاّ شعير ولبن أكل شعيراً ولبناً.

بمعنى لا يُقدَّم التقشف بأنه جانب مهم من الدِّين، هذا حصل قدِّم وكأنه جانب مهم من الدِّين أن تتقشف وأن تبتعد عن الطيبات، ويُقدِّم لك: (كان الإمام علي يأكل شعيراً وملحاً، وكان رسول الله يضع على بطنه الحجر وكان، وكان...) فأنت عندما تبعد نفسك عن هذه الأشياء تبقى مؤمناً ضعيفاً، لا تستطيع أن تعمل شيئاً، وتعتقد بأنك قد أصبحت من أولياء الله، وأنت ترى نفسك في ضعف شديد قد اصفرَّ لونك، لا. رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) كان يأكل لحماً، ويتحرك، هذا هو العمل الصحيح، تتحرك وتتجاوز وتقهر كل الصعوبات التي أمامك، سيقاتل وإن كان جائعاً، وإن لم يكن ما يمسك بطنه ليشده إلاّ حجر يضعها، وليس أنه كان يتعبد لله بالجوع وباستطاعته أن يأكل لحماً أو تمراً أو أيَّ شيء آخر أمامه في متناوله، لا تحصل هذه.

جاؤوا يقدِّمون لنا هذه في تراجمهم، وإذا بالدِّين يصبح أن يكون الإنسان بهذا الشكل: يترك كذا، ويترك كذا، وكان الإمام الفلاني، وكان رسول الله، وكان الإمام، والإمام، وفلان المتعبد، لكن لا، يجب أن يفهموا أنه على هذا النحو، لا تعتقد أن الإمام علياً كان يتعبد لله بأكل الشعير والملح، بل يتعبد لله بالحركة ولو أدى الأمر إلى أنه لا يجد إلاّ ملحاً وشعيراً فسيأكل ملحاً وشعيراً، أو يضع على بطنه حجراً، ولكن متى ما وجد أكلاً طيباً فسيأكل، فلا يكون الإنسان منشغلاً بأن يدلل نفسه دائماً: همُّه أن يحصل على طيبات، ولا يكون بالشكل الذي ينقلب على عقبيه إذا حصل شيء من الشدائد، بل يعمل باستمرار وستنتهي المسألة إلى أن يتجاوزوا الشدائد، يعمل، فإن وجد طيبات أكل، إن وجد فراشاً جيِّداً رقد عليه وإن لم يجد إلاّ بطحاء ففوق البطحاء أو صخرة ففوقها، وإن وجد شعيراً يأكله، وإن وجد بُرًّا يأكل.

لا يربط نفسه بطيبات: يشغل نفسه بـ(روتين) مُعيَّن من الغداء و"التخازين"[1] وأشياء من هذه، ولا يحاول أن يتعبد إلى الله بأشياء قد تكون داخلة ضمن هذه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ﴾ عندما تحمل نفسك على الامتناع وكأنه تعبُّد، وهذا هو الزهد الذي قدِّم، ألم يُقدَّم على هذا النحو؟! معنى التحريم: هو منعُ نفسك وإن لم يكن حكماً ﴿إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾(آل عمران:٩٣) منعَ نفسه من أشياء يمنعها ويَعتبِر أنه قد صار متعبِّداً لله بالامتناع عنها، من أجل ماذا؟ من أجل أنه قد صار يعتبرها ديناً في حد ذاتها.

الإمام علي أجاب على من قال: كيف أنه يستطيع أن يقاتل وهو على هذا النحو؟ إذا كنتَ تروِّض نفسك ترويضاً في إطار أن تكون متجلداً: تتحمل العمل، هذا هو الذي يُعتبَر عبادة، أن تحاول أن تصبر نفسك على

(١) تخازين: من اللهجة العامية، وتعني: جلسات تناول القات في اليمن.

أيِّ شيء، لا تعوِّد نفسك على فراش وثير، ولا على مآكل طيبة، بل تأكل أيَّ شيء، ولا تهتم؛ لتروض نفسك على أن تتحمل أن تعمل في أيِّ مرحلة كانت، فلا بأس، أمَّا أن تكون متعبِّداً بنفس هذا العمل وحده: أن تبتعد عن الطيبات لتقدَّم وأنت زاهد في الدنيا، وممن هجروا الدنيا، وأولياء الله هم على هذا النحو، وبعدها الجنة، فربما تكون في الواقع ممن يعتدي، أي: يتجاوز، يحصل التجاوز على هذا النحو: تمنع نفسك من أشياء، ثم في الأخير وإذا بك تتعبد لله بها، وتصبح هي في حد ذاتها عبادة أمامك، وتضعف عن العبادات الأخرى، ولستَ حولها، ليست ذهنيتك حولها، تكون فقط ترى هذه وقد صارت هي العبادة الهامة (الزهد في الدنيا) لو لم يجاهد هذا الشخصُ، أليس هذا هو الاعتداء؟ ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(المائدة:٨٧) التجاوز.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا﴾(المائدة:٨٨) هنا يبيِّن أيضاً فيما يتعلق بأعداء الأمة، وأنهم قد يكونون بني إسرائيل، وهذا الذي وقع، أعداء يأتون للأمة من كل مجال يمكن أن ينفذوا إليه، أن مواجهتم قد لا تصل إلى هذه الحالة، يتصور الإنسان بأن الجهاد في سبيل الله ومواجهة أعداء الله ستقفل مجالات الرزق، كثير كان يعتقد هذه، عندما بدأنا نرفع (الشعار) يتصور أنهم سيقطعون (البُر) علينا، ألم يكن البعض يقولون هكذا؟ أوصلوا إلى الأسواق بُرًّا آخر، ألم يصل بُر آخر إلى الأسواق؟ لا يظن الإنسان أنه إذا تحرك في سبيل الله أو أمام أعداء من هذا النوع الذين هم أعداء يعملون بكل وسيلة بما فيها الحرب الاقتصادية أو وسائل كثيرة، أنك عندما تواجههم فسيتمكنون من أن يقطعوا رزقك، بل ربما لا يقطعون الطيبات، بل قد تأتي الطيبات عندما تواجههم فعلاً من عند الله سبحانه وتعالى؛ لأن الطيبات هي من عنده: أمطار ينزلها، وبركات ينزلها، وتتوفر طيبات للناس.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا﴾ جاهدوا وكلوا ﴿وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾(المائدة:٨٨) أليست هذه الآية من الأشياء العجيبة أن يقول: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا﴾ وبعدها يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللّهَ﴾؟ هل المعنى أن تتقيه أن تأكل من الطيبات؟! كلْ وجاهد، والله قد قدَّم في القرآن عندما قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قدَّم بأن العاملين معه لا يخسرون على الإطلاق، إذا ظهرت خسارة فتكون شكلية صورية فقط، يأتي بعدها ما هو أفضل منها بأضعاف؛ ولهذا قال: ﴿وَاتَّقُوا اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ اتقوه، لا تعتدوا تحت أيِّ عنوان كان، واتقوه، لا تقعدوا تحت أيِّ خوف من ماذا؟ ألاّ يحصل رزق، أو لا تحصل طيبات، أو أشياء من هذه.

لاحِظ بعض الناس هنا هم في مقام أن يقال لهم: ﴿وَاتَّقُوا اللّهَ﴾ عندما يريد أن يأكل بُرًّا أمريكياً؛ لأن فيه قليلاً من البياض، فهو غير مستعد أن يضحي بقليل لون لا أدري كم قد يكون الفارق بالأرقام بين هذا اللون وبين بُر آخر متوفر في السوق وأرخص منه؟! فهو غير مستعد؛ لأنه يريد الطيبات، هذه هي الحالة السيئة، لا يريد أن يضحي بلون بُر مع وجود بُر آخر في سبيل أن يؤثر على العدو ويقاطعه اقتصادياً، ويكون عاملاً في سبيل الله ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا﴾ وسيوفر لك شيئاً آخر، لو تنازلت عن لون في هذا البُر، فقد يجعل في البُر الآخر بركة وقيمة غذائية أفضل لك من مجرد اللون؛ لأن لون القرص ماذا يعمل لك؟ هل لون القرص يعطي قيمة غذائية؟ قد يكون مع لونه سموم في الواقع، وقد يكون بُر آخر لا يزال يُزرع زراعة طبيعية وهو أرخص، ولو كان لونه أسود، قد يكون له قيمة غذائية أفضل، وبعيداً عن خبرات تجعله مسمماً، يؤدي إلى أمراض شديدة.

إذاً فالإنسان بحاجة إلى أن يتقي الله حول قضية الأكل من الطيبات، ليس معنى الآية كلوا حلالاً طيباً غصباً، القضية هي هكذا: اتقِ الله هنا وهنا: اتقِ الله أن تَحُول الطيباتُ دون أن تعمل في سبيله، واتقِ الله أن تتعبد بالتقشف وأنت تمتنع من الطيبات فتعتدي، تُصبح من المعتدين، تتعبد بعبادة وهمية، وتكون عبادتك هذه على حساب العبادات الحقيقية، مثلما يُقدَّم موضوع الزهد.

﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيمَانِكُمْ...﴾(المائدة:٨٩) إلى آخر موضوع الأيمان وكفاراتها، أيضاً تحريم الخمر والميسر، والأنصاب والأزلام، مثلما يظهر أسلوب القرآن الكريم هكذا يتناول مختلف القضايا، أليس يتناول مختلف القضايا؟ يتحدث عن العدو، ويتحدث عن مواجهته، ويشخّصه، ويتحدث عن القضايا الكبيرة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ﴾(المائدة:٦٧) ويتحدث عن تحريم الخمر، ويتحدث عن الكفارات للأيمان، وهكذا، هذا ماذا؟ تشريع متكامل، وفي أول السورة، في آية ﴿الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(المائدة:٣) تلمس هنا كمال هذا الدِّين: يتناول القضايا الكبيرة والصغيرة، ويقدِّمها بشكل لا يكون الاهتمام ببعضها على حساب الشيء الآخر منها أبداً، يقدِّمها بشكل لا يكون هذا يُعيق قيام هذا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(المائدة:٩٠) وهدى الله أليس يُقدَّم للناس على أساس أن يكونوا مفلحين، وأنه فقط من جهة الله؟ ولهذا

قال في آيات أخرى: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِن الْمُمْتَرِينَ﴾(البقرة:١٤٧) أمَّا الآخرون فهم لا يقدِّمون إلاّ أشياء سيئة، ضلالاً ورجساً ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ لأن هذا هو من الشيطان، والشيطان لا يملك إلاّ رجساً وضلالاً وخبثاً، يجعلكم بمنأى وبمعزل عن تأثير هذا الهدى عليكم في نفسياتكم وفي واقعكم.

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ﴾ الميسر: كأنها عملية القمار المعروفة. والأنصاب: الأوثان (الأصنام) والأزلام: القِدَاح التي كانوا يستقسمون بها: يسافر أو لا يسافر، يذهب أو لا يذهب. ﴿رِجْسٌ﴾ قذرة، رجس للنفوس: يُقذِّر النفوس، ومتى ما قَذِرَت النفوس أصبحت لا تُقدِّم إلاّ - أيضاً - رجساً ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيطَانُ أَن يُوقِعَ بَينَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ﴾(المائدة:٩١) ليس لأن الشيطان يريد أن ترتاح، أن تشرب مشروباً قد يكون طعمه حلواً، أو أشياء من هذه، أنه يبحث كيف ترتاح، لا، هو لديه أهداف أخرى مختلفة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيطَانُ أَن يُوقِعَ بَينَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيسِرِ﴾ لأنها تؤدي - أيضاً - إلى عداوة بين من يشربون، أنهم يتشاتمون، ويتضاربون، وأيضاً الميسر عندما يتقامشون[1] القِمَار يؤدي أيضاً إلى عداوات في النفوس، ماذا يعني هذا؟ ألا يعني: أن دين الله يُقدَّم على أساس بناء النفوس وبناء المجتمع بناءً متآلفاً؛ ليجعل من هذا المجتمع أمة متوحدة متآلفة، بعيدة عن كل ما يثير العداوة والبغضاء فيما بينها؟ وهل من أجل أن يكونوا متفقين فقط، أو على أساس ماذا؟ مسؤولية، ومهام ينطلقون فيها، ليس الهدف أن يتفقوا فقط، لا، يجب أن يكونوا أمة؛ لأنه هناك قال: ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيرِ﴾(آل عمران:١٠٤) فلاحِظ أنه عندما يقول: ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ﴾ يتجه إلى الأشياء التي تُبيِّن لك كيف بناء الأمة، أنه من جهته يعمل، يُبعِد ما يخلخل بناء أمة، أو ما يَحُول دون بناء أمة، ومنها هذه: الخمر والميسر.

تجد الآخرين أليسوا ينشطون في هذه؟ لأن الغاية لديهم هي الغاية الشيطانية تماماً ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيطَانُ أَن يُوقِعَ بَينَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيسِرِ﴾ أليسوا يشجعون على نشر الخمر، والمخدرات، ومحلات القمار، يريدون أن يحصلوا على مكاسب مالية، وأيضاً يخلخلون هذه الأمة؟ إذا أصبح هذا يَسكر هنا، وهذا يَسكر هنا، واجتمعوا وهم سكارى فهل يمكن أن يناقشوا قضية هامة؟ لا يمكن، عندما تقول له: هؤلاء أعداء الله الغربيون متجهون علينا، وهم مفسدون، فسيقول: (مناسب، هذا الذي نريد) مفسدون ينشرون الخمر، ويعملون دُوراً للقمار، هذه ليست مشكلة عنده، هل سيحصل عنده مشكلة؟

ترى كيف أن القرآن متجه ليبني الأمة بناءً صحيحاً، أمةً نفوسُ أفرادِها نفوسٌ زاكية، تكون أمة زاكية، أمة حكيمة، وقوية.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيطَانُ أَن يُوقِعَ بَينَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(المائدة:٩١) ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ﴾ لأن الإنسان إذا كان متذكراً لله يكون قريباً بأن يخافه، ويتقيه، ويهتدي بهداه، ويثق به. ﴿وَعَنِ الصَّلاَةِ﴾ الصلاة كعبادة لها أهميتها في ماذا؟ في ذكر الله، الإنسان المفروض أن يكون في حالة دائمة من ذكر الله سبحانه وتعالى، والصلاة شرعت لتكون عبادة لازم أن يؤديها؛ ليكون هناك في حالة يكون قريباً من ذكر الله، وهو يذكر الله، يقرأ كتابه، ويكبِّره، ويسبِّحه، سيكون ذاكراً له.

إذاً فقضية ذكر الله عند الشيطان قضية خطيرة، يركّز على إبعاد الإنسان عنها، أن يصبح ناسياً لله، ويعيش في حياته اليومية هكذا دائماً ناسياً لله، إذا كان ناسياً لله فسيتمكن أن يعمل به ما يريد.

﴿وَأَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾(المائدة:٩٢) كثير مما قدَّم قضايا فيها الرسول، أليس يذكر فيها الرسول في الموضوع؟ لماذا؟ لأن القضية هكذا، الدِّين يُقدَّم ديناً ليقام، ألا تكون إقامته هنا على يد الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وأمة تقيم الدِّين معه؟ ﴿وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾(المائدة:٩٢) هذا تهديد، ليس المعنى أنه يُقدِّم لك في الصورة: إذاً فمحمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) إنما هو عبارة عن واعظ، بل معناه: أطيعوه، أليس (أطيعوه) معناه أنه إنسان يأمر وينهى ويعمل؟ يجب أن يطيعوه، إذا تولوا فمعناه: أن الله من بعده هو سيعاقِب، الرسول بالنسبة لله سبحانه وتعالى إنما هو مبلّغ.

﴿لَيسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(المائدة:٩٣) هذه كأنها فيما مضى، أو كأنهم سألوه - مثلما

(١) القَمْشُ والتَّقْمِيش: جَمْعُ الشيء من هنا وهناك. وتعني هنا: ما يأخذه الغالب من المغلوب عندما يلعبون القمار.

رُوي - كيف بالنسبة لإخواننا الذين ماتوا وهم كانوا شاربين؟ والله أعلم، قد تكون صحيحة أو لا. يبدو من البداية بالنسبة لتربية المسلمين أن الإنسان الذي كان يتوجه - فعلاً - يكون بعيداً عن هذه القضية، من كانوا يتوجهون لرسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ويعرفون قيمة هذا الهدى، ويلتزمون، يكونون بعيدين قبل أن تأتي عبارة فيها نص تحريم.

لأن تربيته لم تكن على هذا الأساس: أن ينتظروا لفعل أمر يأتي بصيغة (افعلْ) هم لم يقرؤوا (أصول فقه) لكن القضية تكون أحياناً مسكوت عنها، هم أنفسهم يرون أن رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) لا يشرب الخمر، ولا الأشخاص المقربين منه، وهل في أجواء حركته ما يمكن أن يلمسوا منه رغبة إلى أن يشربوا الخمر فيها؟ أبداً لا يوجد؛ قد يكون هناك حالة قائمة بالنسبة للمجتمع، هناك أناس أسلموا لكن ما زالوا مستمرين على الحالة الأولى في الأخير قيل لهم: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(المائدة:٩١) وتُقدَّم بهذه الطريقة التي فعلاً تدفعهم إلى الانتهاء إذا كانوا مؤمنين، بمعنى أنه كان الشيء الطبيعي لهم أن يتوقفوا، وهم يعرفون مسيرة هذا الهدى؛ لأنه يقول: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(البقرة:١٢٩) أيُّ إنسان يسمع هذه الآية يعرف أن الخمر يتنافى مع التعليم، والحكمة، وتزكية النفس، أليس يعرف هذه؟ وفي نفس الوقت لا يرى أن هناك أيَّ مؤشر على إباحته فيما يُقدَّم إليه من هدى الله، ولا في الأجواء التي كان يعيش فيها رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) أن هناك ما يؤشر على أنها طبيعية عنده أبداً.

هذه: ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ فيما قد وقع منهم، مثلما يأتي في كثير من الآيات الأخرى: ﴿عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ لكن في المستقبل ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا﴾ وإلاّ فقد يُؤاخَذ على أنه سكير وقاطع صلاة مثلاً، أو شيء من المعاصي الأخرى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيءٍ مِنَ الصَّيدِ تَنَالُهُ أَيدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ ابتلاء إلهي ﴿لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيبِ﴾(المائدة:٩٤) عندما تجد - مثلاً - صيداً سميناً وليس هناك إلاّ أنت، وقد يمر مِن عندك وأنت مُحْرِم أو في الحَرَم، وقد يمر مِن عندك ولا يوجد أحد قد تستحي منه أو ينهاك عنه فتمسكه وتذبحه ويحصل منه غداء دسم، فقد يأتي ابتلاءات من هذا النوع مثلما حصل لبني إسرائيل، قد يأتي - مثلاً - صيد يمر قريباً من الشخص، هذا ابتلاء فعلاً فيه مشاق كما يسمونها، ليتميز، وهي عملية تربوية في الواقع، أنك متى ما أمسكت نفسك هنا تُعطَى هدى، ويزداد إيمانك، وفعلاً يستنير قلبك، مع أن القضية سهلة، هل هو حمل ثقيل أن يمر مِن عندك صيد كالغزالة - مثلاً - أو أيُّ صيد سمين؟

﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بعدما عرف النهي من الله سبحانه وتعالى واعتدى ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(المائدة:٩٤) هل هذه قضية مماحكة - على ما يسمونها - أو على ما نسميها عندنا (زِغّار) يجعل غزالة سمينة تمر مِن عندك "يفحفحك"[1] ليقهرك، لا، ﴿لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيبِ﴾ فيتجلى في نفسيتك أنك تخاف الله، والإنسان بحاجة إلى هذه الحالة، وقد تأتي الابتلاءات أشياء بسيطة، ليس معنى الابتلاءات أحمال ثقيلة، قد يكون الابتلاء قضية بسيطة جداً في واقعها، لكن تتعامل معها بما يدل على أنك تخاف الله، فيحصل لها أثر كبير في نفسيتك، أي: هي قضايا تربوية في الواقع، لها أثرها، أو مثلاً تُعرِض فتكون مُعرَّضاً لعقوبة.

في مجال الجهاد، في مجال مواجهة أعداء الإسلام قد تحصل قضايا هي ابتلاء للناس فعلاً بأشياء سهلة، وسمينة في نفس الوقت، أي: لها أثر كبير مثل الصيد، أليس في الصيد قد يمر من عندك غزالة سمينة، أو حمار وحشي سمين، أو بقرة وحشية، أو أشياء من هذه؟ قد يأتي في حياة الناس وهم في مواجهة عدو تمر بهم قضايا هي فعلاً سهلة بإمكانهم أن يتناولوها، هنا بعكس موضوع الصيد، أليس الصيد قد تتناوله لأنك لا تخاف؟ لكن هنا بأنك لا تعملها وباستطاعتك أن تعملها، وهي مهمة ومعروضة عليك، عُرِضَت عليك، فهذا يدل على ماذا؟ على أنك لا تخاف الله بالغيب، لا تخافه، ألم يقل هناك: ﴿وَاتَّقُوا اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(المائدة:٥٧) بعد الحديث عن بني إسرائيل؟ أولاً أن يتبادر في ذهنك: اتق الله، بمعنى أن تكون على هذا النحو: أن الله لا يغفل شيئاً، وكل قضية له توجيه فيها، وحكم فيها.

كيف يتبادر إلى أذهاننا أن قضية كبيرة كهذه قد يكون قد أغفلها أو لا يمكن أن يهدي إلى شيء فيها، وهو هنا يُبيِّن لنا قضايا بسيطة مثل قضية (يمين) يُبيِّن كيف تكون الكفارة فيها إذا أحد حنث، بَيَّن هناك تحريم الميتة، والدم، ولحم الخنزير؟! أليس يُبيِّن قضايا بسيطة من هذه؟ فهل يمكن أن تتصور بأن الله ليس له

---

(١) زِغَّار: المقصود هنا الاستفزاز. يُفَحْفِحك: يعذب نفسيتك.

دخْل في هذه القضايا الكبيرة، أو ممكن أن يكون بالشكل الذي يهدي فيها إلى شيء فتنصرف عن أن تتقيه؟ معناه يجب أن تعرف أن هناك توجيهات لله، وأوامر ونواهي، وتعليمات واسعة جداً فيها، فيجب أن تلتفت من البداية، كما أنك ستلتفت إلى الله فتتقيه أمام صيد مثلاً يمر من عندك، أو أمام شيء من هذه الأشياء التي هي محرَّمات مثلاً لحوم محرَّمة مستوردة، ألستَ قد تخاف الله مثلاً فلا تأكل؟ معناه أنت أمام قضية لله حكم فيها، لله توجيه فيها، أليس كذلك؟

أمَّا القضية الكبيرة فتكون ناسياً لله فيها، وكأنه ليس له توجيهات، ولا تعليمات، ولا حكم فيها، لا يصح هذا على الإطلاق، معناه: أن ذهنك يجب أن يكون دائماً مرتبطاً بالله، وأن تعرف أن له توجيهات، وتعليمات، وأوامر ونواهي في كل قضية، بالذات في القضايا الكبيرة، وأوسع تعليمات، وأوسع توجيهات، وأوامر ونواهي، وأشد خطورة، وأعظم فضل عند الالتزام في القضايا الكبيرة، فكيف لا ينصرف ذهني إلى الله فأتقيه؟! للأسف هذه قضية ملموسة عند الناس، يقول لك: (أمريكا وإسرائيل، وهذه حالة خطيرة) لكنه ناسٍ لله، ولا يتصور أن عليه مسؤولية هو فيتقي الله فيها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ...﴾(المائدة:٩٥) إلى آخر الآية، أي: مما نأخذ منها بشكل عام من هذه التفاصيل أن تلمس إكمال الدِّين، وإتمام النعمة، وكيف أن هذا الدِّين كامل ومتكامل من القضايا الكبيرة إلى أصغر القضايا، وفي مختلف المجالات، في كل الشؤون، وهنا تهديدات، أليس هنا تهديدات على صيد ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؟ فإذا كان هناك عدو كبير يريد أن يصطاد الأمة والإسلام، ألا يُعتبَر السكوت عنه والتخاذل أمامه ألا يكون الناس مهددين بعذاب أليم؟ أنت ترى هنا تهديداً ووعيداً في قضية صيد، فكيف بالقضايا الكبيرة؟!

ثم يذكر أيضاً: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ﴾(المائدة:٩٦) أنه هكذا: لا يُقفِل المجالات تماماً، متى ما تبدو وكأنك مُنِعْتَ عن شيء فالله يفتح موضوعاً آخر، حرَّم صيد البر، أحل لهم صيد البحر وهم مُحْرِمون، هذا يأتي في مقدمة الحديث عن الكعبة، هنا مقدمات وأنت متجه إلى الكعبة: لا تقربْ هذا الصيد، لا تعتدِ على كذا، أي: المسألة أنت في حالة متجه إلى مقام عظيم، إلى الكعبة، فعندما ترى هنا تهديداً ووعيداً في قضايا صيد وهي تُعتبَر ماذا؟ من الأشياء التي في محيط الكعبة، وفي أجواء المسير إلى الكعبة لحجها أو اعتمارها، أليس كذلك؟ فيأتي بعدها: ﴿جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ﴾(المائدة:٩٧) تقوم بها حياتهم، وإقامة لدينهم، ولا تتصور بأنه يمكن إقامة حياة بدون إقامة دين لأيِّ مجتمع ولا حتى الغربيين أنفسهم، هل تظن بأن حياتهم الآن مستقيمة؟ ليست مستقيمة.

﴿جَعَلَ اللّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ ألم يذكر هنا الأمن؟ ذكر الأمن سابقاً في آيات فيما يتعلق بالبيت الحرام، وفيما يتعلق بالشهر الحرام، فيكون هناك أمن، البشر في الصراع فيما بينهم بحاجة إلى مكان آمن، وبحاجة إلى وقت آمن، زمن يكون آمناً تقوم به حياتهم، لا يتهالكون باستمرار في كل مكان وفي كل زمان.

﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ﴾ أيضاً من قيام للناس؛ لأن ﴿الْهَدْيَ﴾ يأكل منه كثير من الحُجَّاج والمعتمرون، و﴿الْقَلاَئِدَ﴾ قد يكون بعضها يستفيدون منها، كانوا يتعودون أن يجعلوها نعالاً، يستفيدون منها، وتجد فعلاً في الحج كم يحتاج الناس من أحذية! الأحذية هناك تكون مطلوبة بشكل كبير. ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ حتى هذه القلادة ملحوظة؛ لأنها في إطار ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ هل يمكن مَن يلحظ القلادة لإقامة حياة الناس أن يُهمِل القضايا الكبيرة؟! لا يمكن، فعندما يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(المائدة:٦٧) أليست هذه قضية هامة؟ قضية هامة في مجال ماذا؟ في مجال: قياماً للناس، قياماً للأمة، إقامة للدِّين الذي على أساسه تقوم الأمة.

﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ لا يُغفِل لا صغيرة ولا كبيرة مما يشكّل قياماً للناس ﴿وَأَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾(المائدة:٩٧).

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(المائدة:٩٨) فهو مَلِك، وهذا يتكرر في القرآن بهذا الأسلوب أنه ملك السموات والأرض وليس مَلكاً يَعِظ فقط، بل مَلكاً يُثيب ويُعاقِب.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾(المائدة:٩٩) هذه عبارة تهديد، أي: الله هو المتكفل بهذه: يثيب ويعاقب هو، هو عندما يجعل الرسول كما قال سابقاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾(النساء:٦٤) وهذه من الأشياء

التي تُبيِّن لك كيف أن القرآن لم يُقدَّم بديلاً عن الله، والرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) لم يكن بديلاً عن الله، الرسول في حركته، والقرآن في حركته يشد إلى الله - فتلمس أن الله هو الملك، هو الإله، هو الرب - يهدي إلى الله، يقول هنا: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(المائدة:٩٧) أي: هو ملك الناس، ملك السموات والأرض وما فيها، وهو بكل شيء عليم، يثيب، ويعاقب، فهو أرسل رسوله مبلغاً عنه، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يثيب ويعاقب هو، ورسوله يهدي إليه، أليس هو يهدي إليه؟ ويعمل بهداه، فكل ما يعمله، وكل ما يدعو إليه، كل ما يتحرك فيه هو يشد الناس إلى الله.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ ورسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) كانت حركته على هذا النحو، أي: حركته بالشكل الذي يملأ نفوس الآخرين توجهاً إلى الله، عبادة لله، لا يكون بالشكل الذي - مثلاً - يلمس نفسه بأنه مثلاً ذكي، وعبقري، وقدير، فيحاول أن يشدهم له، له، مثلما يعمل الآخرون (الطواغيت) الله يقول هناك: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾(آل عمران:٧٩) هذه طريقته، عندما تقرأ هذه الآية ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ فاعرف بأنها منهج تُبيِّن لك كيف كانت حركة رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ولهذا نقول: إن القرآن أهم مصدر لمعرفة سيرة النبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وشخصيته.

في الآية السابقة: ﴿فَإِن تَوَلَّيتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾(المائدة:٩٢) كيف الصورة هنا: لا تعتقدوا أنكم - مثلاً - أمامكم محمد فقط، أليس كأنه يبعده مِن أمامهم ويَبرز هو سبحانه وتعالى في الصورة؟ هي نفس القضية هنا، حركة رسول الله تكون على هذا النحو: يوجِّه الناس بالشكل الذي يجعل ما يملأ مشاعرهم هو ماذا؟ التوجه إلى الله، واستشعار رقابة الله، وملكه، وألوهيته...إلخ.

كذلك الإمام علي؛ ولذلك نستبعد جداً أن يكون هناك أناس ألَّهوه - كما يقولون - إذا كانوا يجلسون عنده ويسمعونه، فلا يمكن أن يحصل لديك أن تؤلِّهه؛ لأنه يشدك إلى ماذا؟ إلى العبودية لله، وليس يُقدِّم لك مؤهلاته بالشكل الذي يجعلك تُعجب به وتعتقد أنه قد صار إلهاً، لا يحصل هذا على الإطلاق. الآخرون (الطواغيت) هم الذين يجعلون الناس يتخذونهم أنداداً من دون الله، هو يشد الناس إلى نفسه فقط لم يعد يرى أعلى منه شيئاً، إليه فقط، إلى أن يصبح رمزاً، وعَلَماً، أو أيَّ عبارة من هذه، لم يعد أعلى منه شيء.

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ بعضهم يفهمون هذه الآية بمعنى: الرسول عليه أن يبلِّغ، ثم يقول في الأخير: (اهتمامات الدِّين: أنك تُبيِّن فقط ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيهِم بِمُصَيطِرٍ﴾(الغاشية:٢١-٢٢)) أليسوا يقدِّمونها هكذا؟! لا، إنها بهذا الشكل: هو في المقدمة يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾(النساء:٦٤) وهنا قال بعبارة واضحة: ﴿أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ متكررة، لكن ليفهموا بأن الله هو مَلك حاضر، شهيد، رقيب.

كأنه يقول: "ابْعِدْ مِنهم" ذكِّرْ إنما أنت مذكِّر وعليَّ المسألة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾(المدثر:١١) ﴿إِنَّ إِلَينَا إِيَابَهُمْ﴾(الغاشية:٢٥) ونظائرها في القرآن كثيرة بهذا الشكل، ليس معناها أن تقول: (إذاً فالنبي كانت مهمته أن يَعِظ) فأنت تتعلم على أساس أن تكون أيضاً واعظاً فقط و﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾(المائدة:٩٩) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيهِم بِمُصَيطِرٍ﴾ أي: لا دخْل لك بهم، ولا تفرض نفسك عليهم، ولا أشياء من هذه، يقدِّمونها بهذا الشكل!

أليس الله يقول: ﴿النَّبِيُّ أَولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾(الأحزاب:٦)؟ أليست الآية واضحة؟ أي: يجب أن يطيعوه، ويتبعوه، هو أولى بك من نفسك، لم يعد هناك أعلى من هذا، أن تطيعه وتتبعه. ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾(المائدة:٩٩) ماذا وراء هذه؟ وراءها أنه سيؤاخذ، هو شديد العقاب.

﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(المائدة:١٠٠) بشكل عام لا يعجبك كثرة الخبيث سواءً كان أناساً، أو مالاً، أو كيفما كان، لا يحصل لديك إعجاب بهذا. هذه تُعتبَر قاعدة عامة، ولها علاقة بكل هذه القضايا، لاحِظ في آية سابقة: ﴿مَا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾(آل عمران:١٧٩) أليست هذه واحدة؟ قد يكون في التمييز أنه: أناس ينفصلون هكذا، أو أناس يذهبون هكذا، أليس بهذا الشكل؟ قد يكون الإنسان بطبيعته يعجبه أن يرى كثيراً كثيراً، لا، فلتكن مركّزاً على الطيب وأنت تحوِّل الكثير هذا إلى طيب، يكن توجيهك أن تحوِّل الناس إلى طيبين بما تعنيه الكلمة، لكن لا تعتقد أن المسألة متروكة - عندما يقول: لا يستوي الخبيث والطيب - سيميز الخبيث من الطيب، هذه سُنة إلهية، وتأتي بعضها من داخل الابتلاءات، هذا ذهب من هنا، وهذا ذهب من هنا.

وقد تُقدَّم أحياناً؛ لأنه لاحظ هنا توجيهات مثل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(المائدة:٩٨) ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾(المائدة:٩٩) قد تأتي مواقف أمام فئة من الناس مثلاً، يأتي آخر ممن هو حريص على أنه: نريد الكل (الناس جميعاً) وأشياء من هذه، فيقول: (لا نُجافي هؤلاء لكي لا يذهبوا من أيدينا، لا كذا، ولا...إلخ) لا، القضية أنه عندما يَتبيَّن أن هناك خبثاً، إنْ كان باستطاعتك أن تصلحه ما لم فما عليك ﴿قُل لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ إذا كان هذا خبثاً فلا تأسَ عليهم ولا تأسف (مع السلامة) ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فلا ينفع، الخبيث لا يُقدِّم شيئاً.

﴿فَاتَّقُوا اللّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(المائدة:١٠٠) يأتي في أسلوب القرآن - أحياناً - شيء أشبه شيء بقاعدة عامة، وترى أن لها علاقة بكل ما سبقها من قضايا، الناس أليس فيهم خبيث وطيب؟ المأكولات أليس فيها خبيث وطيب؟ الأموال أليس فيها خبيث وطيب؟ النفوس أليس فيها خبيث وطيب؟ كم! ترى في كل شيء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾(المائدة:١٠١،١٠٢) كل شيء له وقت، إذا نزل القرآن وهو يتناول قضية مُعيَّنة، فتستفهم استفهاماً عملياً باعتبار أن القضية لها علاقة بك، مثلاً تقول: إذاً كيف؟ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيرٌ﴾(البقرة:٢٢٠) بعد تحريم أموالهم، لكن كيف يمكن أن نعمل مع اليتيم؟ هل نفصل ماله تماماً أو يمكن أن نبقى مع بعض؟ بعبارة تشبه هذه، فلا بأس، وإلاّ فالأفضل في مسيرة التشريع بألاّ يكون هناك تساؤلات؛ لأن هناك قضايا مسكوت عنها ليست مُقرَّة، إنما ليس الآن وقت تناولها، لماذا؟ لأن هذا الدِّين دين عملي، ومسيرة عملية، وقد يمكن - عندما تسأل - أن يشكّل سؤالك إحراجاً في القضية، عندما لا يأتي جواب فقد يفهم الآخرون بأن ذلك الموضوع مُقَر، فيقال: الإسلام أقر كذا، وهو لم يقره، أو يقول بالحكم فيها، ويكون الناس في الواقع لم يتأهلوا بعد لأن ينطلقوا فيها عملياً.

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾(المائدة:١٠٢) ربما لو تأخروا لَمَا أصبحوا كافرين، لكانوا قد صاروا متقبلين لها. هذا مما يؤكد أن الدِّين هو ماذا؟ مسيرة عملية، ليس الدِّين فتاوى فقط، تشريعات وكتابة، بل ديناً عملياً، مسيرة من البداية كلها مسيرة عملية.

﴿مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (المائدة:١٠٣) هنا ينزه نفسه سبحانه وتعالى عن أن يُنسَب إليه هذه الأشياء مع أنها تبدو قضايا طبيعية، أليست تبدو طبيعية باعتبار تأثيرها في المجتمع؟ البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، فيما يتعلق بهذه الدواب: الإبل والضأن، إمَّا مثلاً يخرمون أذنها، أو يَشقّون أذنها، أو أشياء من هذه، أو يسيبها فلا تُمنع من ماء، ولا من مرعى، ولا يُحمَل عليها، ولا... هذه هل لها أثر اجتماعي في الناس؟ لها أثر سلبي؟ لا، لكن هي قضايا غير حكيمة فالله ينزه نفسه عن هذه باعتبارها ماذا؟ أشياء ليست حكيمة، وأشياء تافهة اعتبرها تافهة، لا يقوم عليها شيء. إذاً فمن يتنزه عن هذه فهو منزه عن الأشياء التي تُنسَب إليه - وما أكثرها! - تنسَب إليه وهي تضر في نفس الوقت بالأمة وبالدِّين فهو منزه عنها.

﴿وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا﴾(المائدة:١٠٣، ١٠٤) مع أنه قد يكون مما وجدوا عليه آباءهم أشياء مما لا قيمة لها، فتكون متشبثاً بأشياء لا قيمة لها نهائياً، وتترك أشياء هامة، أو أن تكون أشياء في الواقع هي سيئة، باطل وضلال تتشبث به في مقابل الهدى، هذا الهدى هو عظيم جداً وله قيمة كبيرة، ماذا عمل آباؤكم؟ بحيرة وسائبة ووصيلة وحام، أليست هذه؟ فهو مستعد أن يتمسك بهذه ولا يسير وراء هذا الهدى العظيم، أليس هذا يُعتبَر من الأشياء التي تُبيِّن أن النفوس تنحط حتى تصبح لا تعرف قيمة ما له قيمة في الواقع؟ ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا أَوَلَو كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ فهل سيسيرون وراءهم؟!

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيتُمْ﴾(المائدة:١٠٥) هذه - أيضاً - من الآيات التي يحصل فيها: (ما عليك شيء، لا يضركم من ضل، اترك) معناها هكذا! لكن ماذا قرأنا من البداية؟ نحن الآن أمام أربع سور من القرآن، كيف تُقدَّم المسألة؟ أن يتحرك الناس على أساس هدى الله، وكل الأطراف الأخرى كل ما عملتْ فلن تضرك في الأخير، لكن إذا كنتَ تتحرك على هدى الله، أليس هناك: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾(آل عمران:١١١) ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيدُهُمْ شَيئًا﴾(آل عمران:١٢٠) ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾(آل عمران:١٨٦)؟ بَيِّن لنا هذه الفئات كلها: فئات أهل الكتاب، فئات

المشركين، المنافقين، كل فئات أعداء الله، مهما كانت عليه، مهما كانت قوتها، مهما كان تآمرها، إذا اهتديتم فلن يضركم هؤلاء على الإطلاق، لن يعيقوكم، ولن ينالوا منكم، هذه القضية التي تعنيها الآية.

هذه الآية عظيمة جداً، آية تشكّل قاعدة صريحة ﴿لاَ يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيتُمْ﴾ لكن نحن قلنا: إن كلمة (هدى) قد ضُربت نفسها، وكلمة (ضلال) قد ضُربت، أي: (إذا كنتُ قد أصبحتُ معتقداً بأن الله لا يُرى فلا يضرني ذلك الذي يعتقد بأن الله يُرى، ويعملون ما يريدون) أليس كذلك؟ المسألة أنه إذا كنتم تسيرون على هدى الله، وهدى الله يتناول القضايا العقائدية، والعملية، وكل شيء، بل العقائدية هي عملية كلها، إذا اهتديتم بهدي الله وسرتم على هدى الله لن يضركم الآخرون، والآخرون إنما يكونون ضالين، هو أيضاً يُقدِّم من يسيرون على هديه أنهم هم الوحيدون المهتدون، يُقدِّم كل الفئات الأخرى ضالة؛ لأن الحق فعلاً هو سبيل واحد، وطريق واحد، فمن يقابلون الحق من يُعتبَرون هناك أطرافاً أخرى فمعناه أنهم في ضلال، سواءً ضلال بنسبة ٥٠٪ أو ١٠٠٪ أو كيفما كان.

﴿إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(المائدة:١٠٥) هذا ما زال تهديداً لكي تترسخ هذه القاعدة في النفوس، وقدَّم في الأخير بعدما قدَّم لك صورة عن الهدى، عن وعوده، عن أعدائه، عن موقفهم الضعيف أمامك، وفي الأخير قال: الخلاصة ﴿لاَ يَضُرُّكُم مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيتُمْ﴾ إذاً فلتترسخ هذه في ذهنية كل واحد، ويعرف ﴿إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَينِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوتُ﴾(المائدة:١٠٦) قالوا إن عُمر قال: هذه الآية هي من أشد الآيات، فيها (خربطة) الشهادات. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَينِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنكُمْ أَو آخَرَانِ مِنْ غَيرِكُمْ﴾ لا يوجد غيرهم وأنتم في سفر ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُصِيبَةُ الْمَوتِ﴾ وأنت تريد أن توصي فلتُشهد شهيدين ذوي عدل إن كان هناك، أو آخران من الحاصل ﴿أَو آخَرَانِ مِنْ غَيرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُصِيبَةُ الْمَوتِ﴾. والكلام فيها فيما يتعلق بهذا الشخص، وفيما يتعلق بالذين ما زالوا في البلاد، بالناس الذين هم وراءه.

﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ أي: فتؤدى هذه الشهادة إذا حصل ارتياب تحبسونهما، أي: الشهيدين ﴿مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ في شهادتهم حول موضوع الوصية، أو حول موضوع ما كان لديه من رأس مال، أو أيِّ شيء من هذا ﴿لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ أي: يقولون هكذا، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَو كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الآثِمِينَ﴾(المائدة:١٠٦) ويذكر القضية كيف كانت.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾(المائدة:١٠٧) أي: كانت شهادتهم بشكل يبدو الواقع بخلافها، حصل شيء، ﴿عُثِرَ﴾ أي: ماذا؟ اكتُشِف وعُلِم إذاً فللطرف هذا ماذا؟ أن يُقدِّم شهادته الحقيقية التي تفضح الذين ماذا؟ ﴿عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾.

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أي: الشاهدين ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانُ مَقَامَهُمَا﴾ وكلمة ﴿عُثِرَ﴾ تعني: في مَن عثروا، وفي مَن شهد ما عثروا عليه، أليست هكذا؟ من عثروا، أي: اكتشفوا شيئاً بطريقة معلومة، ﴿يَقُومَانُ مَقَامَهُمَا﴾ لأجل ألاّ تضيع الحقوق ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ معناه أن القضية بخلاف ما قدموها في شهادتهم، فلهؤلاء أن يُقيموا الشهادة على هذا النحو ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيهِمُ﴾ ممن القضية استحقاق عليهم بسبب شهادة الأولين، وعثروا على خلاف الواقع، على خلاف ما كانت الشهادة الأولى، فهم ﴿الأَولَيَانِ﴾ بأن يُعلنوا كيف الواقع، يقومان مقامهما ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيهِمُ الأَولَيَانِ﴾ الأولى ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَينَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(المائدة:١٠٧).

هذه من القضايا التي قد تكون نادرة، أي: نفس هذه العملية هي نادرة في مسيرة الإجراءات القضائية، في واقع الناس أليس المعنى هنا بأنه وكأن من يشهدون ويدلون بالشهادة هم المستحَق عليهم؟ لكن القضية يبدو فعلاً فيها ما يكشف بطلان الشهادة السابقة، هنا تختلف مع ما يقال (شهادة لنفسه) أليست تبدو شهادة لنفسه؟ هنا يقول: ﴿الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيهِمُ﴾ من الذين استحق عليهم؟ طرف كانت الشهادة السابقة تعني: استحقاقاً عليه، أي: اعتبر النقص عليه، أو أشياء من هذه ﴿عُثِرَ﴾ ومعنى هذا أن هذه الشهادة تعني ماذا؟ أن هناك طرفاً ثالثاً، أليس معناه: أن هناك طرفاً ثالثاً؟ هناك طرف ثالث في هذه القضية مثلاً القاضي أو ولي الأمر أو كيفما كان هناك طرف ثالث في الموضوع يستطيع أن يعرف القضية.

وأحياناً فعلاً خاصة في القضايا التي قد تكون نادرة مثلاً شخص سافر ومات، ولم يكن معه إلاّ اثنان، وشهدوا

أن القضية كذا كذا، ثم تأتي قرائن، أحياناً قد تكون هناك قرائن من خلال كلامه قبل السفر، أو من خلال أشياء أخرى - لا أحد يستطيع أن يعرف بالتفصيل - تؤدي إلى كشف الحقيقة بخلاف ما شهدوا به، إذاً فهل يضيع الحق؟ هنا يبدو وكأن مَن هم المعنيون بالقضية لا يقال هم شهود لأنفسهم (هذه تُعتبَر شهادة لنفسك) لا، بل هي قضية تخضع أيضاً لتقييم الطرف الثالث، يعني مَن؟ القاضي أو ولي أمر يعرف.

فعندما يعرفون بأن الإجراءات هكذا: أنها تُعطي حقاً للمستَحَق عليه فيما إذا عثر على أن الشهادة كانت بخلاف الواقع، فهي أدنى بأن يأتوا بالشهادة على وجهها، على أساس أن الطرفين مما يقولونه قسم، أليس قسماً؟ ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هذه عبارات هامة، أي: العقوبة بعدها خطيرة.

﴿ذَلِكَ﴾ هذا الإجراء ﴿أَدْنَى﴾ أقرب إلى ﴿أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ عندما تكون خائفاً من أن تُفضَح ﴿أَو يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيمَانٌ بَعْدَ أَيمَانِهِمْ﴾(المائدة:١٠٨) خاصة إذا هو فاهم بأن للطرف الآخر - فيما لو اكتشف الحقيقة - هذا الإجراء سيؤدي الشهادة على أصلها. لكن ليست هذه القضية في كل اختلاف، بل قضايا خاصة هي هذه (قضايا نادرة) القضايا التي تأتي في أجواء لا يوجد أحد إلاّ شاهدين.

(...)

﴿يَومَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾(المائدة:١٠٩) وكيف كانت نسبة الإجابة وهكذا، هي تقرير تتناول بشكل واسع موضوع نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام وأنه رسول من عند الله، رسول من عنده، وكيف أنه قال: ﴿وَإِذْ أَوحَيتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(المائدة:١١١) وما قال للحواريين بالنسبة للمائدة؛ لأنه ما زال في قضية المائدة عندما طلبوها ما يدل على أنهم هكذا: مؤمنون بأن عيسى إنما هو رسول، والله هو ربنا ورب عيسى ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ألم يقولوا هكذا؟ ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَينَا مَآئِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللّهَ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾(المائدة:١١٢) ففيها تقرير، وشهادة واسعة بأنه مما سيحصل في الآخرة، وما قد حصل في الدنيا، من طلب نزول هذه المائدة إلى ما ذكره من القضايا الأخرى.

وبعدها ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾(المائدة:١١٦) يتناول قضية رئيسية حول قضية الشرك به فجعلوه إلهاً بعدما قامت البينات في حياته بمنطقه هو، وأنه كان يعتقد أنه رسول فقط من عند الله، وأن الله هو ربه، والحواريون الذين هم خُلَّص أصحابه هم الآن الذين يسمونهم رسلاً (أصحاب أناجيل) داخلها هذا الشرك، سموهم رسلاً، أي: هم صفوة المسيحية، أو صفوة النصارى، وإن كان بعضهم عاصروا عيسى، وعاشوا بعده، لا، إن واقع الحواريين الصفوة أنهم كانوا يرون عيسى عبداً لله، وأن الله هو رب عيسى وربهم ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَينَا مَآئِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾(المائدة:١١٢).

بعدها ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَينِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيسَ لِي بِحَقٍّ...﴾(المائدة:١١٦) إلى آخر الآية، فيقرر بأن ما اعتقده النصارى من أنه رب، ثم قالوا: ثالث ثلاثة، أو بأيِّ اعتقاد جعلوه إلهاً، أنها قضية كبيرة جداً: كفْر، شرك بالله، وأن عيسى يشهد عليهم بأنهم مشركون، هذا هو خلاصة معنى بقية السورة.

في آخرها: ﴿لِلّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾(المائدة:١٢٠).

إلى هنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

[الله أكبر / الموت لأمريكا / الموت لإسرائيل / اللعنة على اليهود / النصر للإسلام]

تم هذا الإخراج الجديد بعد مزيد من
المراجعة والمقابلة مع (الكاسيت) الصوتي
بتاريخ: ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٤٢هـ
الموافق: ١٠/ ٢/ ٢٠٢١م

الله أكبر
الموت لأمريكا
الموت لإسرائيل
اللعنة على اليهود
النصر للإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

دروس من هدي القرآن الكريم

ألقاها السيد / حسين بدر الدين الحوثي

قاطعوا
البضائع الأمريكية
و
الإسرائيلية

دروس من سورة آل عمران	الدرس الأول ٢٠٠٢/١/٨م	الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/٩م	الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/١١م	الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/١٢م
دروس من سورة المائدة	الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٣م	الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/١٤م	الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/١٥م	الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/١٦م
دروس معرفة الله				
الثقة بالله ـ الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٨م	نعم الله الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/١٩م	نعم الله الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/٢٠م	نعم الله الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/٢١م	نعم الله الدرس الخامس ٢٠٠٢/١/٢٢م
عظمة الله الدرس السادس ٢٠٠٢/١/٢٣م	عظمة الله الدرس السابع ٢٠٠٢/١/٢٥م	عظمة الله الدرس الثامن ٢٠٠٢/١/٢٦م	وعده ووعيده الدرس التاسع ٢٠٠٢/١/٢٨م	وعده ووعيده الدرس العاشر ٢٠٠٢/١/٢٩م
وعده ووعيده الدرس الحادي عشر ٢٠٠٢/١/٣٠م	وعده ووعيده الدرس الثاني عشر ٢٠٠٢/٢/٤م	وعده ووعيده الدرس الثالث عشر ٢٠٠٢/٢/٥م	وعده ووعيده الدرس الرابع عشر ٢٠٠٢/٢/٦م	وعده ووعيده الدرس الخامس عشر ٢٠٠٢/٢/٨م
دروس متفرقة				
الصرخة في وجه المستكبرين ١٧/ ١/ ٢٠٠٢م	{اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً} ٢٠٠٢/١/٢٤م	الهوية الإيمانية ٢٠٠٢/١/٣١م	في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (١) ٢٠٠٢/٢/١م	في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (٢) ٢٠٠٢/٢/٢م
خطر دخول أمريكا اليمن ٢٠٠٢/٢/٣م	لتحذن حذو بني إسرائيل ٢٠٠٢/٢/٧م	معنى الصلاة على محمد وعلى آل محمد ٢٠٠٢/٢/٨م	معنى التسبيح ٢٠٠٢/٢/٩م	{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى} ٢٠٠٢/٢/١٠م
{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ} ٢٠٠٢/٢/١١م	الإرهاب والسلام ٢٠٠٢/٣/٨م	مسؤولية طلاب العلوم الدينية ٢٠٠٢/٣/٩م	خطورة المرحلة ٢٠٠٢/٣/١٦م	دروس من وحي عاشوراء ٢٠٠٢/٣/٢٣م
{وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ} ٢٠٠٢/٧/٢٦م	الثقافة القرآنية ٢٠٠٢/٨/٤م	آيات من سورة الكهف الجمعة ٢٠٠٣/٨/٢٩م	{وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} ٢٠٠٢/٩/٢م	الإسلام وثقافة الاتباع ٢٠٠٢/٩/٢م
لا عذر للجميع أمام الله ١٤٢٢/١٢/٢١هـ	مسؤولية أهل البيت ٢٠٠٢/١٢/٢١م	أمر الولاية ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٢هـ	يوم القدس العالمي ٢٨ رمضان ١٤٢٢هـ	دروس من غزوة أحد ذو الحجة ١٤٢٢هـ
آيات من سورة الواقعة ١٠ رمضان ١٤٢٣هـ	الشعار سلاح وموقف ١١ رمضان ١٤٢٣هـ	ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام ١٩ رمضان١٤٢٣هـ	حديث الولاية ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٣هـ	{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي} ١٤٢٣هـ
الموالاة والمعاداة ١٤٢٣هـ	{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}	الوحدة الإيمانية	{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى}	{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ}
من نحن ومن هم	دروس مديح القرآن من الدرس الأول إلى الدرس السابع من تاريخ ٥/٢٨ /٢٠٠٣م إلى تاريخ ٢٠٠٣/٦/٣م			
دروس شهر رمضان المبارك ١٤٢٤ هـ				
سورة البقرة: الآيات (٢١ـ ٣٩) ٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٤٠ ـ ٦٦) ٤ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٦٧ـ١٠٣) ٥ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (١٠٤ـ١١٤) ٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(١١٥ـ١٤٥) ٧ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة البقرة: الآيات (١٤٦ـ١٨٦) ٨ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(١٨٥ـ٢١٤) ٩ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(٢١٥ـ٢٥٢) ١٠ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(٢٥٢ـ٢٧٤) ١١ رمضان ١٤٢٤هـ	الآيات(٢٧٥من البقرة ـ٣٢ من آل عمران) ١٢ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة آل عمران: الآيات (٣٣ـ٩١) ١٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة آل عمران: الآيات (٩٢ـ١١٦) ١٤ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة آل عمران: الآيات (١٦١ـ آخر السورة) ١٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة النساء: الآيات (١ ـ ٤٢) ١٧ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة النساء: الآيات (٤٣ـ١١٦) ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة النساء: الآيات (١٣٥ ـ آخر السورة) ٢٠ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (١ ـ ٢٦) ٢١ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (٢٧ ـ ٥٧) ٢٢ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (٥٥ ـ آخر السورة) ٢٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأنعام: الآيات (١ ـ ٣٩) ٢٤ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة الأنعام: الآيات (٣٩ ـ ١٠٢) ٢٥ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأنعام: الآيات (١٠٣ ـ آخر السورة) ٢٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١ ـ ١٣٧) ٢٧ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١٣٨ـ١٦٢) ٢٨ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١٦٣ ـ آخر السورة) ٢٩ رمضان١٤٢٤هـ